د . محمود محمد محمد عمارة
الأستاذ السابق
بجامعتى الأزهر وأم القرى

صفحات
من تاريخ المرأة المسلمة

الطبعة الثالثة
[بها زيادات مهمة]

الناشر
مكتبة الإيمان
المنصورة ت : ٢٢٥٧٨٨٢
أمام جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

الناشر
مكتبة الإيمان
المنصورة ت : ٢٢٥٧٨٨٢
أمام جامعة الأزهر

بسم اللّه الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ وَاللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مّنَ الطّيّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٢] .

صدق اللّه العظيم

* * *

مقدمة

لم تكن الأنثى فى حس العربى الجاهلى بأسعد حظاً من أختها فى الغرب .. من حيث كانت ولادتها خبرا مؤسفا يتلقاه الأب كاسف البال .. قليل الرجاء .. على نحو ما قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[النحل ٥٨ : ٥٩].

لكن كراهة الأنثى ترجع فى أهم أسبابها إلى خوف العربى على كرامته أن تنال.. وحميته أن تخدش ..

بيد أن مبالغته فى الحفاظ على كرامته تأدت به إلى وأدها مخافة عار يلحقه .. الأمر الذى شدد القرآن عليه النكير .. حفاظاً على عنصر فعال فى ترقية الحياة .. وإبقاء على المرأة كمحضن للأجيال المقبلة..

وإذا ما استعرضنا أيات القرآن الكريم المتعلقة بقصة آدم وزوجه نخرج بحقيقة ترفض كل ما دار حول المرأة من شائعات كاذبة .. ثم تضعها بعد ذلك فى مكانها اللائق بها .. كشريك للرجل فى عمارة الكون .. وامتداد الحياة ..

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقُلْنَا يَآدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه :١١٧].

﴿ وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة:٣٥:٣٦].

﴿ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾[الأعراف :٢٢].

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾[الأعراف:٢٠].

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[طه:١٢٠-١٢١].

ونجد أنفسنا أمام مجموعة من الحقائق .. تشير إليها الآيات الكريمة :

١- الشيطان عدو لآدم وزوجه معا . وهو الذى يتربص بهما فى محاولة لإخراجهما من الجنة .

٢- وقد نجح فعلا وكان سببا فى إخراجهما من الجنة معاً :

(أ) ﴿ فأزلهما الشيطان عنها ﴾ .

(ب) ﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾.

(جـ) ﴿ فدلاهما بغرور﴾.

(د) ﴿ كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾.

٣- اتجهت وسوسة الشيطان إليهما ابتداء ﴿فوسوس لهما﴾ .

٤- لكنها تنتهى إلى أدم وحده .. كما يفهم من معنى الانتهاء فى الحرف {إلى} «فوسوس إليه» .

(والفكرة هنا عن أستاذنا المغفور له الدكتور محمد بن فتح اللّه بدران).

٥ - ثم إن اللّه سبحانه يتجه إليهما معا بأوامره ونواهيه وهما على سواء مسئولان مسئولية كاملة :

لقد أمرهما اللّه تعالى :

بالسكن فى الجنة .

بالأكل من الجنة .

ونهاهما عن :

الاقتراب من الشجرة .

عن طاعة الشيطان .

٦- وقد حذر الحق سبحانه بنى آدم أن يقعوا فيما وقع فيه أبوهم آدم وزوجه .. حين أخرجهما الشيطان من الجنة . هذا العدو الذى ما زال يقعد لكم كل مرصد:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر:٦].

وعلى أساس من هذه الحقائق القرآنية ينبغى أن تكون نظرتنا إلى المرأة التى ظلمتها الأساطير .. حتى تستعيد حقها المغصوب على يد الحاقدين من كتاب الغرب.

كما ينبغى أن نصحح صلتنا – نحن المسلمين – بهذا القرآن المهيمن على الكتب قبله .. والذى هو مصدر الحق فى كل موضوع .. وبخاصة فى موضوع كهذا نتجاهل فيه المرأة كعنصر فعال فى هذه الحياة ..

وأمثلة هيمنة القرآن على التوراة كثيرة خصوصا فى سفر التكوين : ففيه أمور كثيرة يصححها القرآن :

فيه مثلا أن حواء هى التى حملت آدم على الأكل من الشجرة وأن الذى وسوس لحواء وحملها على الأكل من الشجرة قبل آدم هى الحية . من غير ذكر للشيطان كأن لايد له فى الإغواء.

والذين يريدون الجمع بين هذا وبين ما فى القرآن يقولون : إن الشيطان لبس الحية . وبلسانها أغوى آدم وحواء لكن القرآن الكريم لا يذكر الحية مطلقا ولا يحمل حواء وزر البدء بالأكل من الشجرة خلافاً لأمر اللّه .

بل إنّ مفهوم آية سورة طه أن آدم هو الذى اقتنع أولا بالأكل طلباً للخلود بإغواء الشيطان وتزيينه . وأن زوجه – ولم تذكر باسمها قط فى القرآن – أكلت معه إن لم تكن أكلت بعده .

وهذا هو المتبادر من قوله تعالى :

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىَ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاّ يَبْلَىَ . فَأَكَلاَ مِنْهَا ﴾ [طه : ١٢٠ ، ١٢١] .

والشيطان وسوس إلى زوج آدم أيضاً حين وسوس لآدم بدليل آيات سورة الأعراف :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبّكُمَا عَنْ هَـَذِهِ الشّجَرَةِ إِلاّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَآ إِنّي لَكُمَا لَمِنَ النّاصِحِينَ . فَدَلاّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمّا ذَاقَا الشّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنّةِ ﴾ [الأعراف:٢٠ – ٢٢] .

لكن ليس فى القرآن الكريم آية تخص زوج آدم بالوسوسة . أو تنسب الوسوسة والإغراء بالشجرة لغير الشيطان .

فالقرآن فى هذا المثل مهيمن على التوراة . ومصحح لما جاء فى سفر التكوين.

(من مقال بعنوان : القرآن مهيمن على الكتب قبله .. للأستاذ الدكتور : محمد أحمد الغمراوى).

وبعد أن يتعقب القرآن الكريم هذا الوهم الشائع ليحرر المرأة من مضاعفاته .. يضعها فى مكانها اللائق بها كمصدر للخير والبر .. عكس ما تصورها المغرضون.

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل :٧٢].

وإذا كان الجنس للجنس أميل .. فإن نظرة الرجل إلى المرأة ينبغى أن تكون فى إطار من التقدير والحب .. لأنها قطعة منه .

وفوق هذا .. فهى محضن لأولاده وأحفاده .. وبها يمتد وجوده عبر المستقبل فى شخص بنيه وحفدته .. أى : إنها مصدر خيره وبره وركيزة سعادته لا تصورها الأساطير .

أنها مطلع شقائه وعذابه ..

وهى بهذا الاعتبار .. رزق طيب .. ساقه اللّه إليه .. ونوشك أن نقول : إن الرجل ذاته رزق طيب قدمته هى إلى الحياة رطباً جنيا !!

هذه حقائق يجب أن يؤمن الرجل بها فى علاقته مع المرأة وما عداها.. باطل يبرأ منه بمقتضى إيمانه .. وكفر بين لنعمة جليلة تستأهل كفأها شكرا وعرفانا.

ولأن العلاقة بينهما بهذه المثابة من القوة .. فإنها تستعصى على الفناء .. وتبقى وثيقة .. دنيا وأخرى :

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [غافر :٨] .

﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾ [يس: ٥٦] .

لكن القرآن الكريم لا يقف بالمرأة من الرجل موقف المستجدى لعطفه وتقديره..

بل إنها .. بأشواقها .. وإيمانها .. تستطيع أن تصعد إلى السموات العلى .. وتستجيب لها السماء .. كإنسان له حقوقه التى يجب أن تصان من كل عبث .. محتفظة بقدسيتها وجلالها .

يقول الحق سبحانه مستجيبا لآمال امرأة تشكو زوجها الذى هضم حقها :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١].

ولا تستقر علاقة الرجل بالمرأة على حال من القلق ما لم تنل هذا الحق .. وتقف معه جنباً إلى جنب فى معترك الحياة فى نطاق هيمنة الزوج على الأسرة التى جعلها اللّه حقا له ..

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء : ٣٤] .

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

وقد جعل اللّه من هذا الحق سعادة تظل البيت .. بقدر ما كان اعترافا بشخصية المرأة يستقيم به شأنهما معا :

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

فللمرأة .. كما للرجل حقوق يجب أن تقدر .. ويجب أن يكون الاعتراف بها صادرا عن اقتناع .. لا بدافع من مصلحة ذاتية . وهذه درجة للمرأة لم تحصل عليها .. وتكريم لذاتها .. يسبق به الإسلام كل مذهب يدل به أتباعه :

يقول المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت فى كتابه « الإسلام عقيدة وشريعة » ص ١٦٧ - ١٦٨.

«ولا نكاد نجد فى تشريع ما . أرضى أو سماوى . مثل هذه القاعدة الجليلة التى جعلها القرآن أساسا للحياة الزوجية .

ولفت بها الأنظار إلى ما بين الزوجين من الحقوق والواجبات تلك القاعدة . هى ما أحكمه اللّه بقوله :

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾.

وقد قال الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .. تعليقا على هذه الآية المحكمة . وبيانا للمكانة التى رفع الإسلام المرأة إليها :

« هذه الدرجة التى رفع النساء إليها . لم يرفعهن إليها دين سابق . ولا شريعة من الشرائع . بل لم تصل إليها أمة من الأمم قبل الإسلام ولا بعده .

وهذه الأمم الأوربية – التى كان من تقدمها فى الحضارة والمدنية أن بالغت فى احترام النساء وتكريمهن . وعنيت بتربيتهن وتعليمهن الفنون والعلوم .. لا تزال المرأة فيها.. دون هذه الدرجة التى رفعها الإسلام إليها .

ولا تزال قوانين بعضها تمنع المرأة من حق التصرف فى مالها دون إذن من زوجها .

ذلك الحق الذى منحته الشريعة الإسلامية للمرأة من نحو ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن:

فلم تبح للرجل أن يأكل من مالها – فضلا عن تملكه والتصرف فيه – إلا إذا كان عن طيب نفس منها :

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً ﴾ [النساء : ٤] .

وقد كان النساء فى أوروبا منذ خمسين سنة بمنزلة الأرقاء فى كل شىء . كما كن فى عهد الجاهلية عند العرب أو أسوأ حالا. إلى أن قال :

« وقد صار هؤلاء الإفرنج الذين قصرت مدنيتهم – ولا أقول دينهم الذى جاء به المسيح – عن شريعتنا فى إعلاء شأن النساء يفخرون علينا . بل يرموننا بالهمجية فى معاملة النساء .. ويزعم الجاهلون منهم بالإسلام أن ما نحن عليه هو أثر ديننا ».

وقد أثمرت هذه التربية القرآنية نساء قانتات صالحات .. حافظات للغيب بما حفظ اللَّه .. وتأدى التمسك بتطبيقها إلى إثراء الحياة بهذه المثل العليا .. التى يعشو إلى ضوء نارها كل راغب فى الكمال .. متطلع إلى التأسى به .

وسوف يكون حديثنا فى هذا الكتاب تجلية لصفحات من تاريخ المرأة المسلمة تتبدى فيها خصائصها فى ظل من تمسكها بدينها .

وسوف نخلف ظن « الإفرنج » بهذه الصفحات .. التى تثبت حسن علاقة الرجل بها .. وحدبه عليها .. حاكما .. وزوجا .. ووالدا .. وفوق ذلك .. سيتبين لكل باحث عن الحق خطأ المستعمرين فى إرجاعهم تخلفنا إلى تمسكنا بآداب الإسلام .

بل إن هذا التخلف المزعوم شنشنة نعرفها من أخزم ! ومحاولة فاشلة يراد بها أن تخف قبضتنا فلا نستمسك بالإسلام شريعة ومنهاج حياة .. بدليل هذه النماذج التى سنستعرضها معا .. وكيف جاءت صالحة طبق تعاليم الإسلام التى تمسكت بها .. وتعبيرا عن روحه العالية فى صياغة النفوس على الخير.

وليست هذه الصفحات بحثا علميا يتناول شخصية المرأة المسلمة بالتحليل .. بقدر ما هو تسجيل انطباعاتنا بصدق وأمانة .. حيال بعض مشاهد تاريخنا .. التى تلعب المرأة فيها دورا بارزاً يؤكد ذاتها .. ويرد بالواقع المشاهد إفكا يفترى عليها ..

وما أحوجنا إلى بذل مزيد من الجهد لتجلية هذا الجانب الهام فى حياتنا .. استنباطا للعبرة .. ثم تقديمها للحياة المعاصرة تجربة حية مفيدة.. حبذا لو نسج الناس على منوالها .. ليوفروا على أنفسهم متاعب جرهم إليها تجاهلهم لدور الإسلام فى إعداد المرأة وتربيتها .. متأثرين بثقافات وافدة تتنكب طريق الحق .. وتسترخص كرامة الإنسان من أجل نزوة عارضة !

إن هذه الثقافات الوافدة .. قد فشلت فشلاً ذريعاً فى بيئاتها .. وعجزت عن علاج أدواء الناس هناك .. ثم يراد لها – للأسف – أن تنحى الإسلام .. وتحمل دونه راية الإصلاح .. فى مجال من أخطر المجالات فى الحياة وهو علاقة المرأة بالرجل ..

وهى خديعة لا تنطلى على كل مؤمن بربه .. واثق بدور الإسلام فى ترقية الحياة..

أننا نريد – بضرب هذه الأمثال – إقامة المرأة على سواء الصراط .. بعيدا عن كل تفريط يكبت مواهبها .. أو إفراط يهدر كرامتها .. مما يجعل من هذه الصفحات تذكيرا لكل باحث عن الحق .. ملتمس طريقه إلى ربه ..

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً﴾ [المزمل : ١٩] .

* * *

هذه الفتاة .. تعلمنا فن الحياة ..

« قال أسلم :

بينما أنا مع عمر بن الخطاب وهو يعس – يتحسس أحوال رعيته – بالمدينة .. إذْ عَيِيَ فاتَّكأَ على جانب جدار فى جوف الليل .. وإذا امرأة تقول لابنتها :

قومى إلى ذلك اللبن فامذقيه – اخلطيه – بالماء .

قالت الفتاة لأمها :

أو ما علمت بما كان من عزم أمير المؤمنين ؟

قالت الأم:

وماذا كان من عزمه يا بنية؟

قالت :

إنه أمر مناديه فنادى :

« لا يشاب – لا يخلط – اللبن بالماء ».

قالت الأم لابنتها ساخرة :

يا بنيتى : قومى إلى اللبن فامذقيه بالماء .. فإنك فى موضع لا يراك عمر ولا منادى عمر!

قالت لأمها غاضبة :

يا أماه : ما كنت لأطيعه فى الملأ .. وأعصيه فى الخلاء ! وهل يغيب عنا رب عمر.. إذا غاب عمر ؟!

وقد سمع عمر هذا الحوار كله .. فقال لأسلم : علم الباب . واعرف الموضع .

ثم مضى فى عسه .. فلما أصبح قال : يا أسلم .

امض إلى الموضع فانظر : من القائلة ؟ .. ومن المقول لها ؟ .. وهل لها من بعل ؟- زوج -

فأتيت الموضع فإذا الجارية لا بعل لها . وكذلك أمها . فأخبرت عمر فجمع أولاده وقال لهم :

هل فيكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه ؟ لو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية .

وكان للجميع أزواج عدا « عاصم » بن عمر فتزوجها .. ثم وولدت له بنتاً وولدت هذه البنت « عمر بن عبد العزيز » وتنتهي القصة ولا يكاد ينتهي حقها من العجب :

ولا يملك الإنسان إلا أن يحنى رأسه تقديرا.. ثم يقف خاشعاً أمام جلال الذكرى..

ذكرى هذه الجارية .. التى يرف طيفها الآن فى آفاق الخيال .. فتأخذ على القلب أقطاره :

فتاة فى مقتبل العمر يرتفع ولاؤها للقانون السائد إلى مستوى عال .. ويملأ وعيها صوت الحاكم وهو يخط للتجار معالم الهدى .. وقاية لهم من رذيلة الغش .. وحفظا لأموال الناس أن تذهب سدى .. فيذهب معها رباط المودة بينهم .

لقد أتيحت لها مخالفة القانون فى جنح الظلام .. بعيداً عن أعين الرقباء .. وكان لها من وسوسة أمها عذر قائم إذا ما وقعت فى قبضة القانون ..ومع كل هذه الاعتبارات.. رفضت أن تنفذ أوامر الأم الملحة .. وتعود إلى فطرتها السليمة تعوذ بها .. بعد أن وضعتها أمها على جافة الهاوية .

إن ولاءها للقانون لم يكن وليد رهبة .. واحترامها للحاكم لم يأت عن تسلط .. لكنه وليد ذلك الضمير الدينى المستقر فى أعماق النفس .. وهو معها فى الليل إذا سجى.. والنهار إذا تجلى .. يثبت أقدامها أبدا على الصراط .. كلما هبت من حولها الأعاصير.

وفى الوقت الذى تغيب فيه عن أعين الرقباء .. يظل هذا الضمير ساهرا فى كيانها.. مفتوح العين أمام كل طارق وافد . يمنعها أن تزل قدمها فتردى .

وعند صحوة الضمير تتجلى قيم ومثل تلفت الناس إليها لينسجوا على منوالها .. ولو أطلت هذه القيم من ثقب خيمة بالية .. تتقاذفها رمال الصحراء!

إن هذه الفتاة لتضرب الأمثال لسدنة النفاق الاجتماعى .. هؤلاء الذين يؤيدونك علانية .. ثم يخاصمونك سرا !! ويؤمنون بالرأى وجه النهار .. ليكفروا به آخره !

وهى تعلمهم أن تلك بضاعة مزجاة .. قد تفيد حينا .. لكنها تخلف من ورائها شخصية هزيلة هشة .. لا تستقر على حال من القلق .. وحتى ولاؤها للدين والوطن.. يكون موضع شك كبير .

إن احترام الكلمة التى تنطق بها .. والتمسك بعهد أخذته على نفسك .. أمر تفرضه إنسانية الإنسان قبل أن يدعوه إليه دينه .

وهو نوع من الثبات على المبدأ يتيح للإنسان فرصة تحصيل كثير من الفضائل.. تستقر فى كيانه لتستمر .. وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

لقد نادى الخليفة قائلاً :

« لا يشاب اللبن بالماء ».

وقالت الفتاة : سمعنا وأطعنا.

فلتحترم الفتاة جوابها ... نعم .. سرا وعلانية .

وإذا كان ولابد من « لا» .. فليكن ذلك جهرة .. وعلى ملأ من الناس .. وفى نفس الميدان الذى نادى فيه عمر .

ذلك ما تعبر عنه كلمتها الباقية :

« ما كنت لأطيعه فى الملأ .. وأعصيه فى الخلاء» .

اعتزاز بالرأى واحترام له .. ولو كلفها باهظ الثمن ..

وما قيمة حفنة من المال تفوتها بهذا الإباء .. لو أنها أطاعت أمها .. ثم صحا ضميرها يوما .. فعذبها عذابا نكرا .. يحرق أعصابها .. ويطرد من قلبها راحة دونها أكوام الذهب ؟!

كان من الممكن أن تتظاهر بالطاعة.. ثم تغطى وجهها الحقيقى بالبسمة المعسولة .. والكلمة الفارغة ..

لكنها لا تتعامل مع الناس .. وإنما تتعامل مع رب الناس الذى يعلم السر وأخفى.

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩].

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤].

وتحدى الفتاة لأمها يبرز جانباً آخر من ثباتها على المبدأ .. ويكشف عمق إيمانها بالله عزّ وجلّ :

إن المنزل – كما تقول القصة – يضم أما وبنتا حرمتا من ظل زوج يرعى .. ووالد يحنو .

فالفتاة إذن .. واقعة تحت سيطرة أم لا تملك منها فكاكا . وهى بحكم التقاليد مرتبطة ببيت أمها الذى صار لها قدراً ومصيراً .. فإلى أين المفر ؟ !

لقد ضربت بكل ذلك عرض الحائط .. وفرت إلى اللّه الذى منحها نعمة التوفيق.. وأذاقها طعم الحق .. فعز عليها أن تراه مهضوماً ..

صحيح أن شخصية الأم قوية .. وصوتها عال إزاء ابنة يتيمة مهيضة الجناح..

لكن الإيمان فى قلب الفتاة كان أقوى .. وصوت الضمير فى كيانها كان أعلى وأسرى !

قالتها بصراحة : لا .. لن أخلط اللبن بالماء ..

وما سمحت لها نفسها حتى بمجاملة أمها فى محاولة لاتقاء شرها .. وتجنب عقابها .. فكل عمل ينقص الحق من أطرافه مرفوض .. ويبقى فقط ولاؤها للحق الذى تدين به .. وللمبدأ الذى تعمل له .. وهو عزاؤها الوحيد إذا خذلها الواقع المر. وأين من هذه الفتاة بنات اليوم ؟

يأمر الأب أو الأم ابنتها ..

وعلى اللسان يجيء الجواب بالتسليم ..

وفى نفس الوقت تخفى إصرارها على المخالفة .. فى ضوء ابتسامة ساخرة تنحل معها .. وبتكرارها .. رابطة الثقة بين الأسرة والبنت ..

بينما ترفع الجارية نظر أمها إلى أعلى .. إلى اللّه تعالى .. الذى يعلم السر وأخفى ..

فهى لا تتخذ من أمر أمها مادة لسخرية عابثة .. بقدر ما تنتهز فرصة هذا الأمر المرفوض لتعرج منه إلى درس تلقنه أمها التى تقف على شفا جرف هار .. حين تخاف عمر .. ومنادى عمر .. بينما لا تخاف اللّه سبحانه وتعالى .. الذى خلق عمر .. وخلق مناديه!!

إنها تؤمن بالحق . ثم تحاول بث هذا الإيمان في قلوب الآخرين وفي مقدمتهم أمها العاصية الغافلة .. ورغم أنها على الحق ظاهرا وباطنا .. لكنها لا تجعل من غايتها الشريفة مسوغا تلجأ به إلى سب أمها أو تجريحها ..

ولماذا تلجأ الفتاة المؤمنة إلى لفظ ناب أو كلمة جارحة ؟

إنها أولا تخاطب أمها :

وحق الأمومة عظيم لا يحبط آثاره شيء حتى كفر الأم ذاتها؟!

ثانياً : فإنها لا تدافع عن مغنم يتعلق بشخصها حتى تلجأ للسباب ..

بيد أنها تدافع عن الدين الذي تعيش له .. ولا تعيش به ! ومن عاش للدين كان رحمة مهداة .. وبلسما شافيا لكل قلب جرح ..

أما الذين يدعون أنهم على الحق .. وباسمه يجرون الناس إليه بالحبال .. أو يسوقونهم إليه بالعصا .. والكلمة النابية .. فإنما يدافعون عن مأرب ذاتي .. وحاجة شخصية ..

إنهم يعيشون بالدين .. لا للدين ..

ولقد كانت هذه الفتاة أصفى منهم قلبا .. وأَسَدَّ رأياً .. وكانت وهي الغضة .. محدودة التجربة .. أصدق تمثيلا لروح الداعية الموفق .. وأدل بسلوكها المتزن على معنى قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ادْعُ إِلِىَ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِيَ أَدْعُو إِلَىَ اللّهِ عَلَىَ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨].

لقد فسرت بموقفها السليم .. معنى هذه الآيات الكريمة .. وكانت بذلك أسرع إلى فهم روحها ..

وقد ينال الإنسان باللين .. مالا ينال بالشدة .

مشروع زواج :

قد تجمعك الصدفة العابرة بإنسان ... فتتجاذب معه أطراف الحديث .. والحديث ذو شجون ..

ويغيب هذا الإنسان عن ناظرك .. لكن طيفه ما زال يسبح فى خاطرك .. ذلك.. بأنك تجاوبت معه . وأنست إليه .. حيث اجتمعتما على مبدأ واحد .. فتألف منكما الطبع .. وتوافقت لديكما الروح ..

أى أنك وجدت فيه صورة نفسك .. فملأ عليك حياتك . ليصبح فيها حقيقة باقية..

فإذا كنت مع ذلك واحدا من المصلحين تدعو إلى مبدأ .. وتجمع القطيع الشارد على كلمة سواء .. فإن البهجة تربو فى صدرك عندما ترى آراءك مجلوة على مرآة شعبك .. ..

وهى نفس المشاعر التى خفق بها قلب الخليفة عمر عندما سمع الحوار الدائر بين الأم والجارية :

لقد رأى مثلاً حيا لقواعد الأمانة .. والعدل .. والشجاعة الأدبية التى أرساها ثم رعاها ..

رآها تطل من ثقب بيت صغير .. فقير على لسان يتيمة فقدت العائل لكنها لم تفقد الضمير .

إذن .. فهو سعيد الليلة .. سعادة تحس ولا توصف .. وفى سجوة الليل .. بدأ ينقل خطاه فوق دروب المدينة :

كل شىء من حوله ساكن هادىء .. لا تسمع صوتاً .. إلا وقع أقدام يهرب صداها إلى الأفق البعيد رويداً رويداً ..

ويضع الزمان أذنا صاغية فوق صدر الخليفة .. ليسمع لقلبه وجيباً ويحس له نبضاً :

إن هناك فكرة تلح عليه :

حبذا لو كانت الجارية هذه بلا زوج .. إذن لأصبحت زوجا لواحد من أبنائه فيسعد بها بيت أمير المؤمنين ؟!

وقد حدث .. وصارت زوجا لابنه عاصم ..

ولكن كيف حدث ؟

لنبدأ الفصل من أول الطريق :

إن عمر – رضى اللّه عنه – يضرب الأمثال للناس . ويعلمهم دروساً فى احترام ذات الإنسان:

فلم يطاوعه إيمانه فيقتحم على المرأة سترها فى ظلام الليل ..

فيهتك بذلك حجاباً .. ويعكر صفو لحظات جعلها اللّه للناس مثابة وأمناً ..

ثم هو لا يريد أن يظهر بشخصته القوية على المسرح ليواجه المرأة الغاشة ..

ولو أنه فعل ذلك لحدث واحد من أمرين أحلاهما مر "

١- قد تتنكر الجارية لكل ما حدث كرد فعل لذلك .. دفاعا عن أمها وسمعتها كتاجرة تعامل الناس ..

٢- وربما أسعفتها شجاعتها الأدبية فقالت الحق فرارا من عقاب الخليفة العادل..

وحينئذ فقد تعرض البيت لهزة عنيفة .. وعاشت البنت مع أمها بعد ذلك فى شقاق دائم ..

ولقد كفاهما الخليفة المؤمن كل هذا حين رجع من حيث أتى . ليعالج الأمر بقلب كبير متصل بالحق سبحانه :

نبتت فى رأسه فكرة!

ماذا لو صارت الجارية زوجاً لأحد أبنائه ؟

إنها نبتة خضراء فى منبت السوء.. فانتشالها والحالة هذه من تربتها السبخة إنقاذ لها من بين أعشاب طفيلية تحاول امتصاص عواطف الخير فى قلبها ..

ينبغى أن تلقى البذرة الطيبة فى أرض خصبة . تمتد فيها جذورها . وتسمق فروعها .. لتؤتى بعد ذلك أكلها كل حين بإذن ربها ..

وهذا النموذج الفريد للفتاة المسلمة .. يجب أن يلتقى أيضاً بالنموذج الفريد للفتى المسلم .. وليكن ذلك فى بيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب..

ويعود الإنسان الآن من صحبة الخليفة فى خطواته تلك إلى واقعنا الذى نعيش فيه .. ليسأل نفسه سؤالاً :

ألم يبحث الخليفة وهو يعد هذا المشروع فى رأسه عن ملامح الإغراء فى حياة الفتاة .. والتى تشد إليها أنظار الطالبين ؟.

أين حسبها أو نسبها ؟ بل وأين مالها ..؟

وهل هى بتكوينها مستعدة للعيش فى منزل الرجل الأول فى الدولة ؟

إنها لنقلة بعيدة المدى .. تدور لها الرءوس !!

وإذا كان قد استهواه منها صحوة ضميرها وعمق إيمانها ..

أفيستهوى ذلك شابا من أبنائه .. قد تكون الصورة لفتاة الأحلام فى ذهنه شيئاً غير هذا ؟ ولعل فصل الخطاب يسعفه .. إذ يهديه اللّه إلى دليل حىٍّ من جوامع الكلم على لسان الرسول ﷺ يجعل من فكرته رأيا مؤيدا بالدليل ..

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من تزوج امرأة لعزها .. لم يزده اللّه إلا ذلا .

ومن تزوجها لمالها .. لم يزده اللّه إلا فقرا ..

ومن تزوجها لحسبها لم يزده اللّه إلا دناءة .

ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره . ويحصن فرجه أو يصل رحمه .. بارك اللّه له فيها وبارك لها فيه » .[1]

وإذن :

فلا ضير أن تكون بائعة اللبن زوجاً فى بيت أمير المؤمنين ..

لا ضير أبدا.. ما دامت عزيزة برأيها .. كريمة بخلقها .. غنية بقناعتها . جميلة فى سمتها الوقور وسط إغراء الحياة الدنيا ..

وصحيح أن أم الفتاة غاشة :

ولكن اللّه عزَّ وجلَّ يقول :

﴿أَلاّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزرَ أُخرَىَ وَأَن لّيسَ لِلإِنسَانِ إِلاّ مَا سَعَىَ ﴾ [النجم : ٣٨ : ٣٩].

﴿ كُلّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨].

﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىَ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة :١٤].

وما ذنب فتاة تبذل ما فى وسعها لتبقى أمينة فى جو ضاغط داع إلى المعصية؟.

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط

إن أمانتها والحالة هذه تبدو مثلا أعلى .. وقدوة حسنة تزرى بكل ما فاتها من مظاهر الحياة :

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه

فما فاته فيها فليس بضائر

ولو فتحنا هذا الباب .. وحكمنا على الولد بوضع أبيه .. وصبغناه به .. لما وجدنا للفضيلة أنصارا .. ولفشلنا فى صياغة جيل جديد يعمر الدنيا فى الوقت الذى نعوق فيه انطلاقه .. إذ تقيده بأوزار أبيه أو جده !

ومن حسن حظ الخليفة عمر أن كان هو مثلا يعرض نفسه الآن لصورة تهدم هذا الاتجاه الرجعى :

يقول عمر – رضى اللّه عنه – :

« كنت بهذا الوادى أرعى إبل الخطاب .. وكان فظا يتعبنى إذا عملت .. ويضربنى إذا قصرت ..

وقد أمسيت الليلة وليس بينى وبين اللّه أحد» .

ولم يمنع قانون الوراثة – وهذا الشبل من ذاك الأسد – أن يجىء عمر ابنه جياشا بالحنان والمودة للناس .. وربما غاب عن الحياة كلها إذا سمع آية من القرآن الكريم ..

ثم إن خاله (أبو جهل » عدو الإسلام الأول .. فهل وقف هذا النسب حجر عثرة فى طريق عمر – رضى اللّه عنه – . ومنعه من الصعود ؟.

أبدا ..

لقد رشحته مواهبه الشخصية ليكون الرجل الأول فى الدولة كما يقول هو عن نفسه .

« وقد أمسيت الليلة وليس بينى وبين اللّه أحد » .

فليس بغريب أن يرث الابن صفات أبيه أو أمه .. غير أن القول بوراثتها كما هى .. تجاهل لقدرة الدين على تهذيب النفوس وتهيئتها للكمال .. وإنكار للبيئة بمعناها العام .. وأثرها فى ترقية النفوس . بقدر ما هو إنكار لمواهب الإنسان الشخصية التى لا يمكن أن يشاركه فيها غيره وإن تشابهت إلى حد ما ..

إن الأب الذى يصنع الصاروخ ليدمر الحياة .. قد يرث ابنه ذكاءه الذى أطلق ذلك الصاروخ ..

لكننا نظلم الحق إذا قررنا أنه ورث عنه غايته الدنسة وهدفه المدمر .. إذ ربما سخر ذكاءه لخدمة الإنسان وترقية المجتمع .. والأم فى قصتنا تاجرة تبحث عن الربح بذكاء اللصوص .. غير أن ابنتها ترثه فى ضوء الدين الجديد الذى صاغه خلقاً آخر .. كفص من الماس يشع ضياء وبهاء ..

إن الذين يحكمون ماضى الأب أو الأم فى طلبهم بنت الحلال يظلمون الحق .. ويضلون سبيل السعادة وهم يبحثون عنها .. وهم فى غمرتهم تلك ساهون عن وجهة نظر الإسلام التى وضعت النقط فوق الحروف .. وحملت كل إنسان مسئولية عمله بقدر ما أعفته من أوزار غيره .. ولو كان أمه أو أباه .. وملاحقة الأبرياء الأتقياء بأوزار آبائهم .. إنما هو محاولة لطمس هذه المواهب .. وعرقلة لسيرها إلى أمام ..

بل إن ملاحقة الإنسان بسيئة تاب منها مظهر حقد نعوذ بالله منه ومنطق نفس ترى العيوب وتجسدها .. وليس أضر على المجتمع من هذه الروح المدمرة الحاقدة. التى تحرم الدولة من مواهب فذة بناءة .

ولقد مرت بالمسلمين فى عصورهم الأولى تجارب من هذا النوع وجدها الرسول الكريم فرصة للدرس والتعليم :

« قبل حركة المسلمين لفتح مكة المكرمة حرص الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام على كتمان حركته من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة . كما حرص على كتمان نياته العسكرية فى الفتح حتى يباغت قريشا ويجبرها على الاستسلام دون إراقة الدماء » .

ولكن « حاطب بن أبى بلتعة » - رضى الله عنه - . كتب رسالة إلى قريش وأعطاها امرأة متوجهة إلى مكة المكرمة . يخبر فيها قريشا بنيات المسلمين فى حركتهم لفتح مكة .

وعلم النبى ﷺ بهذه الرسالة . فبعث « عليا بن أبى طالب » كرم الله وجهه ، و«الزبير بن العوام » - رضى الله عنهما - ليدركا تلك المرأة التى تحمل تلك الرسالة ويأخذاها منها .

فأدركاها وأخذا الرسالة التى كانت معها .

ودعا النبى ﷺ خاطبا يسألة ما حمله على ذلك ؟

فقال حاطب : يا رسول اللّه !

أما واللّه إنى لمؤمن باللّه ورسوله . ما تغيرت ولا تبدلت . ولكنى كنت امرءاً ليس له فى القوم من أهل ولا عشيرة . وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل . فصانعتهم عليه .

فقال عمر بن الخطاب - رضى اللّه عنه - :

« يا رسول اللّه ! دعنى فلأضرب عنقه . فإن الرجل قد نافق » فقال النبى ﷺ :

أما أنه قد صدقكم .

وما يدريك ؟ ! لعل اللّه قد أطلع على من شهد بدراً فقال :

اعملوا ما شئتم .

شفع لحاطب ماضيه الحافل بالجهاد . فعفا عنه النبى ﷺ . وأمر المسلمين أن يذكروه بأفضل ما فيه .

وعاش حاطب فى مجتمع الصحابة .لا يشنع عليه أحد ، ولا يذكره الناس إلا بالخير. ولا يسمعونه إلا ما يشتهى . ولا يرددون عنه إلا أفضل ما فيه من مزايا وخصال .

وبعد فتح مكة المكرمة أسلم عكرمة بن أبى جهل وحسن إسلامه .

ثم أصبح من أعاظم المجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل اللّه . ومن أكابر قادة الفتح الإسلامى العظيم .

وكان أبوه من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ .

وللمسلمين كافة وللدين الحنيف .

وقد لاقى مصرعه فى غزوة « بدر » الكبرى كما هو معروف .

فمات غير مأسوف عليه . وتخلص المسلمون بموته من خصم لدود .

وكان الصحابة يذكرون أبا جهل بن هشام بما فيه .

فلما أسلم ابنه عكرمة وحسن إسلامه قال النبى ﷺ لأصحابه - عليهم رضوان اللّه-:

(عكرمة يأتيكم . فإذا رأيتموه فلا تسبوا أباه . فإن سب الميت يؤذى الحى) .

هكذا يأمر النبى ﷺ أصحابه الكرام بالكف عن سب أعدى أعداء المسلمين إكراما لولده المسلم . حتى لا يتأثر هذا المسلم نفسيا بسبب أبيه . فتتعقد نفسيته ويضيق ذرعا بالمجتمع الإسلامى الذى كان يعيش بين أفراده وجماعته . له مالهم وعليه ما عليهم .

لقد كان النبى ﷺ يعرف حق المعرفة كل مزايا أصحابه ، فيفيد من تلك المزايا ويبرزها للعيان مشجعا . ويثنى عليها أطيب الثناء مقدرا . ويغض فى الوقت نفسه عن نواقصه ويستر عليها .

وكان ذلك من أسباب انتصار النبى ﷺ عسكريا وسياسيا واجتماعياً واقتصاديا[١] .

وأمير المؤمنين عمر هنا .. يتخذ من عمل الرسول ﷺ قدوة حسنة .. من حيث لم يأخذ الفتاة بجريرة أمها :

لقد تغاضى الخليفة عن كل اعتبار يتجاهل خصائص الفتاة ثم عرضها على أبنائه !

وهو فى عرضه المشروع يمثل دور الأب الحقيقى .. الحريص على مصلحة أبنائه .. والذى يدور حول الموضوع ولكن لا يلمسه . بل يكشف كشفا بعيدا عن الحياء الذى قد يقصيه عن هدفه ..

إنه – رضى اللّه عنه – لا يستحى أن يقول لأبنائه وجها لوجه :

« لو كان بأبيكم حركة إلى النساء .. ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية » !!

وبهذا المنطق الواضح يستنهض هممهم للظفر بهذه الغنيمة ..

رغم أن الأمر يتعلق بمسألة جنسية يدور الآباء حولها ولا يباشرونها ..

* وكثير منهم تخونه شجاعته الأدبية إذ يتخذ من بعض الأصدقاء وسيطا بينه وبين بنيه بشأن موضوع كهذا ...

وبهذا اللف والدوران تضيع معالم الحق .. وتتعثر الخطى بعد ذلك فى مسالك الحياة حيث لم تكن فى البداية رؤية واضحة .

فضلا عن صور من الضغط .. قد يلجأون إليها تنفيذا لخطة يرونها من وجهه نظرهم صائبة . بينما هى بعيدة عن الصواب .

---

(١) من مقال للواء محمود شيت خطاب مجلة الوعى الإسلامى العدد ٦٦ .

وهذا النوع من الآباء .. عليه أن يلتفت بقوة إلى بعض حكم الخليفة عمر .. تبصرة وذكرى :

١ - عمر - رضى اللّه عنه - .. أب بلا شك .. ومن ثم فهو يبحث عن سعادة ابنه فى مستقبل أيامه .

٢ - وقد كان صاحب شخصية لا تقاوم .

٣ - وإنه ليعلم علم اليقين بصلاحية الفتاة كزوجة موفقة .. ومع هذه الاعتبارات فإنه لا يضغط .. ولا يفرض رأيه ..

فالمسألة أولا وأخيرا تتصل برغبة الزوج نفسه .. الذى يرجع اليه الأمر وحده دون غيره .

وخير ما يقدمه الأب لابنه فى تلك اللحظة .. تجاربه الماضية فى صورة نصيحة أبوية غالية .. ربما ساعدته على تكشف ما يمكن أن يجهله لو نظر الى مستقبله بعين قلبه فقط ...

ولقد تم اللقاء بين الجارية وبين ابنه عاصم .

وكان زواجا إسلاميا انطلق من النقطة التى حددها الرسول ﷺ . بعيدا عن أضواء الشهرة ومغرياتها .

« من تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره .. ويحصن فرجه . أو يصل رحمه .. بارك اللّه له فيها .. وبارك لها فيه » .

وقد كان جميلا أن تشير البداية إلى النهاية .

فهذا الزواج المبارك يتمخض فى المستقبل عن الخليفة الذائع العدل : عمر بن عبد العزيز - رضى اللّه عنه - :

إذ تلد الجارية بنتا .. وتلد البنت : عمر بن عبد العزيز !

[عندما تصبح بائعة اللبن جدةً للخليفة !!]

وإذن .. فقد كانت جدة الخليفة عمر بن عبد العزيز بائعة لبن !!

كانت واحدة من قوى الشعب العامل .. تحمل فوق رأسها العانى جرة اللبن لتقدمه إلى الناس بيدها المكدودة شرابا طهورا ولم يكن غريبا أن يحرص كتاب

السيرة على إثبات هذا النسب .. ويدلـون بـه حين يضعون فـى سلسلة أجداده تلـك الجارية !

إنهم لواتقون أنهم بهذا المسلك يقدمون للأجيال من بعده نموذج الحاكم الفاضل.. العادل..

ثم يفلسفون فضله وعدله .. أنه نزعة عرق من جدته الفاضلة وعرق من جده العادل .. عمر بن الخطاب .

وأى عيب أن تكون جدته بائعة ؟!

أى : عيب فى الوردة الحمراء الناضرة تنبت فـى أرض سبخة .. وحيدة .. يداعبها النسيم العابر .. ثم لا يقدرها الزمان قدرها فتنشأ فـى بستان حافل بين أخواتها وأخوالها .. وأعمامها أرباب المناصب العالية ؟

ستظل وردة تنشر العطر حواليها .. وإن سماها الناس شيئاً آخر .. حتى إذا واجهت مجتمعا إقطاعيا ظالماً لا يملأ صدره من عبيرها .. ولا يحاول أن يستنشق أريج فضائلها بل يحاول سحقها والتخلص منها ..

وتحتل كغيرها من أولاد الذوات مكانا تحت الشمس .. حتى اذا ماتت هى .. وماتوا هم .. بقيت هى حديثا يروى . بينما يرسب غيرها فـى القاع .. هناك فـى وادى النسيان !

ويا لقومى .. وأمثال قومى :

لكأنهم يلاحقونها بشبح أمها .. ثم يقعدون لها كل مرصد عاذلين شامتين .. ولكن منطق الحال إن لم يسعفها منطق المقال يرد حاسما :

« كيف يكون اللبن الذى أبيعه سائغا هنيئا تروى به الجسوم . مع أنه يخرج من بين فرث ودم .. ثم لا تكون هى واحدة من عقيلات كريمات بفضائلها الذاتية مع ما فى نسبها من دخل ؟ » .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف:١٠٥] .

ولماذا نذهب بعيدا ؟

إن أشرف مخلوق قذفت به أرحام الأمهات .. محمد ﷺ كان « ابن امرأة من قريش تأكل القديد » .

ولم يمنع ذلك محمداً الرسول أن يتبوأ مكانه العلى .. وأن يتقدم الناس كلهم كرائد لا يكذب أهله .. ولا ينقص من قدره أن كانت أمه فقيرة تأكل القديد .. بل إنه ليدل بهذا النسب سرا وعلانية .. مؤكدا للناس أن فقر الأم ...

لا يمنع الأجيال اللاحقة من الصعود ..

وفى ذمة الله صالحات قانتات حافظات للغيب .. صعدت منهن الروح بعد أن خلفن من ورائهن عباقرة استيقظت لمقدمهم الحياة .

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

لقد كانت الجارية عاملة تسعى فى سبيل رزقها .. ولم تكن تبيع عرضها .

وليت شعرى :

ما كان أغناها عن كل هذا العذاب ..

وكم هناك من طرق ملتوية للربح الوفير . ! تصل بها سريعا إلى ما تريد من ثروة وجاه ..

وما أكثر التجار الجشعين الذين يتلاعبون بأرزاق الناس فيحتكرونها .. ولكنها كانت شريفة .. ترضى بربح قليل تبقى معه عفتها شفافة كما هى أبدا .. مستعلية على كل إغراء .. فى وقت تتقد فيه جذوة الطمع .. وتذل الأعناق أمام بريق المال..

وحسبها شرفا ونسبا .. دينها هذا .. وإن فاتها ما يتكالب عليه الناس .. وليس بعد الدين مطمح لراغب فى الكمال .

ألا يكن عظمى طويلاً فإننى له بالخصال الصالحات وصول
إذا كنت فى القوم الطوال علوتهم بعارفة حتى يقال طويل

وسؤال يبحث عن جواب :

كم يدفع الشاب مهرا لمثل هذه الفتاة ؟

إن المهر لم يرد له ذكر فى قصتنا !

فهل كان مهرا ضئيلا .. لا يستحق الذكر ؟ نعم وإنه لكذلك .. وهو إجراء تمليه روح الإسلام التى تزرى بما يتسابق فيه الناس . اكتفاء بكل معنى نبيل يصلح أساسا لحياة زوجية مثلى ..

وأيضاً .. أين الحديث عن « الشبكة » التى تعلن عنها الصحف حبا فى الظهور الذى يقصم الظهور ؟!

ولو فرض ودعى الى هذا الحفل واحد من الصحفين لما وجد هناك خبرا يستحق النشر !

لا رقص .. ولا مزمار ..

والعروس وحيدة فى مجتمعها .. بلا عم ولا خال تتقرب اليه النفوس وتطمع فى نظرة منه ..

وتلك هى الصورة البسيطة المخلصة لما يجب أن تكون عليه حفلات الزفاف ..

فهل الزواج فرصة تراق فيها الأموال . وتدار فيها الأقداح ثم ينفض « المولد » بعد ذلك .. لتبدأ قصة أخرى .. قصة أسرة تستقبل حياتها فى ظل ديون باهظة تمتص رحيق السعادة فيها ؟

إن الزواج محاولة لبناء أسرة صالحة .. تشكل لبنة صالحة يقوى بها البنيان الكبير .. وترفرت عليها ظلال من سعادة غامرة لتنعكس هذه السعادة بدورها .. على المجتمع نفسه ..

وقد ولدت هذه الأسرة سعيدة حقا .. ثم انعكست منها على الوجود بركة ما زالت تغمر الحياة إلى الآن . ممثلة فى عمر بن عبد العزيز .. الذى أصبح ذكره نغمة عذبة فى فم الدنيا ..

ما بقيت هذه الدنيا !

وتلك هى نقطة البداية .. لتسعد النهاية :

البحث عن الزوج « الصالح » وليكن بعد ذلك ما يكون ..

فهل نحن كذلك ؟

ألا ما أبعد الفرق بين يومنا الحاضر وأمسنا الدابر .

من المضحكات المبكيات .. أن يتقدم شاب لخطبة فتاة .. وإن كان فى جيبه قدر من المال لكن يزكيه صلاحه ونجاحه ..

والأب واثق من صلاحه ونجاحه ..

ولكنه وهو الحريص « جداً » على سعادة ابنته . يرفض هذا الصلاح وذاك النجاح لأنهما لم يعززا بثالث هو المهر الكبير ..

الذى تسير بذكره الركبان ويحطم كل رقم قياسى قبله !

وتلك واحدة من حماقات إنسان اليوم ... وعجيبة من أعاجيبه .

أنه يبحث بالدرجة الأولى عن كل إجراء يسلط عليه مزيدا من الأضواء .. وتجىء مصلحة ابنته فى درجة تالية ... مع أنها صاحبة المصلحة الحقيقية فى الموضوع ؟

تماما كما يفعل إذا مات واحد من أهله :

فهو ينشر نعى صاحبه المرحوم فى صحف واسعه الانتشار .

ثم يصنف الموائد ويقيم السرادق .. للأحياء مثله .. وينسى أن يقدم للمرحوم عملا يضىء له قبره .. ويؤنسه فى وحدته . ؟

ألا يلتفت مثل هؤلاء المتغالين فى طلب المهور إلى لمحات من تاريخهم تعيدهم إلى الحق فى أمر كهذا ؟

إن عمر بن الخطاب يقول :

« إن الرسول ﷺ ما تزوج ... ولا زوج بناته العظيمات الجميلات الطاهرات المؤمنات بأكثر من أربعمائة درهم »

فالعظمة هنا .. والجمال .. والطُهر . والإيمان تزف كلها إلى الشاب فى مقابل جنيهات قليلة ..

ويكفى أنها كلها أساس قوى لحياة تسعد فيها البنت .. وتسعد غيرها .. وأية سعادة بعد ذلك يطلبها الأب .. وأية شهرة يبحث عنها . إذا ما بنى مثل هذا البيت السعيد ؟

فهل يعتقد مثل هؤلاء الآباء أن رصيد بناتهم من الجمال .. والعفة .. أربى من بنات رسول الله ﷺ ؟

أم هل يظنون أن الزواج لعبة رياضية تحتم للفوز بالجائزة من تحطيم كل رقم قياسى سابق ؟

ليس هذا .. أو ذاك ..

وإنما هو الشعور بالنقص يدفعهم إلى التغالى .. والتظاهر على حساب مستقبل الفتاة .. ومستقبلهم أيضا ..

ويمكن لهم أن يتصرفوا كما شاء لهم هواهم .. وليس من حقهم أن يعلنوا ذلك باسم الدين .. الذى هو برىء من كل ما يفعلون ..

ولنحيى معا مشاعر هذا الشاب الذى يسجل خواطره البريئة وهو يناجىفتاة أحلامه بين بدء حياة يريدها واضحة بسيطة لتكون بعد ذلك هنيئة .

لا أملك النجوم يا حبيبتى .. ولا القمر ..

ولا بساط الريح يخطف البصر ..

لا .. ولا خزائنى بها الذى ندر ..

وبيتنا الصغير لا يطاول الشجر ..

لكنه مزين بأجمل الصور ..

والحب فيه يملأ الحجر ..

كما وليس لى وسامة الفتى الأغر ..

لكننى كسائر البشر .. فساعدى يفتت الحجر ..

ويضرب الثرى فينبت الخضر !!

****

وفى ندوة حول تعدد الزوجات بإحدى جامعات المانيا وقف أحد علماء المسلمين فقال :

« إذا كان عدد النساء قد زاد بعد الحرب العالمية الثانية .. وسيزيد بعد الثالثة .. أفلا يكون أكرم للمرأة أن تعيش عزيزة فى ظل رجل ؟ ..

من الخير لها أن تكون حليلة .. بدل أن تكون خليلة » .

ووافقة أكثر النساء على رأيه .. الا أن واحدة : منهن تحمست وأمسكت بخناق العالم المسلم . ثم هزته قائلة :

« لماذا تكتمون هذا عنا ؟ لو سألنا اللّه يوم القيامة لقلنا : سبب تقصيرنا هؤلاء العلماء الذين كتموا حديثك عنا » .

ويعلق المرحوم الأستاذ العقاد على ذلك بقوله :

« وبهذا يظهر لنا أننا لسنا مهملين فى نشر الدين فقط .. بل نحن نسلم بالهزيمة فى كل وقت نملك فيه فرصة الدفاع .. وقد تذهب فرصة الدفاع هذه ولا تعود » .

ولم تكن هذه المرأة الألمانية وحدها التى صحت من غفوتها .. بل عزز موقفها كثيرات غيرها .. ومن بينهن الفتاة الألمانية « أرسولايان » والتى أصبحت الآن الدكتورة « سامية الزهرى » المسلمة .

إنها تسجل انطباعاتها فى رحلة عبر بلاد الشرق فتقول : « عندما كنت طفلة أفهمونا فى المدارس أن الإله فى البلاد العربية إله حرب مثل « مارس » إله الحرب عند الإغريق .

وأن هذا الإله يسعد كثيراً عندما يموت الناس » .

وقد دفعها إيمانها الجديد إلى القيام برحلة .. حاولت فيها أن تقف على كنه الحياة فى الشرق الإسلامى .. وعلى أرضه مباشرة .. بعيدا عن زيف الدعاية المعرضة فى بلادها .

ولم تحاول الفتاة المسلمة أن تأخذ فكرتها من كثرة المآذن مثلا لتكون على أثر ذلك رأيا متكاملا ..

لكنها حاولت أن تأخذ « اللقطة » من زاوية مكنتها من الوصول إلى الحق .. عن طريق استقراء حكايات العجائز هنا فى الشرق . وقد سجلت مفارقات طريفة بين الخطابة الشرقية ..والغربية إلى حد يكشف طبيعة الحياة هنا .. وهناك :

ومن بين ما سجلته الفتاه الألمانية المسلمة :

١- الطفل فى الحكاية العربية برىء .. فعندما يخطف من أمة بدافع الغيرة لا يقتل.. عكس مصيره فى الحكاية الغربية .. فإنه يكون القتل هناك بلا رحمة أو شفقة .

٢- الغيرة عند المرأة العربية المسلمة لها ما يبررها . وبالنسبة للمرأة الغربية فلا سبب من وراء غيرتها .

٣- عندما يطلق المسلم زوجه فإنه يقدم لها الهدايا .. غير أن الزوج الأوروبى يدفع بزوجه إلى الجحيم .. إلى ما يسمى « بيت الأسد » .

٤- فى الشرق : ترى التسامح طابع المظلوم عند انتصاره على ظالمة .. بل ربما قدم له الهدايا .. بينما يساق الظالم فى الحاكاية الغربية - كالعادة - إلى الجحيم.. إلى « بيت الأسد » ! ولم يفت الدكتورة المسلمة أن ترجع هذه المسحة العادلة .. الرحيمة .. الإنسانية .. إلى روح الإسلام التى صاغت النفوس وفقها واتجهت بها إلى وجهة سليمة تحفظ كرامة الإنسان ..

وهو لفت نظر موجه إلى كل مفتون بثقافة الغرب .. فقد شهد شاهد من الغرب.. على أهله !

ودعوة إلى كل مصلح ينشد سعادة مجتمعه .. ليستقرئ تاريخه العربى المسلم بحثا عن هذه الصورة الفريدة المشرقة .. فى وقت تعتز فيه كل أمه بتاريخها وتتغنى بذكراه..

إن لنا تاريخا ينبغى أن نستعيده ونستوعبه .. وقد وجدنا فى قصة الجارية المسلمة روح الإسلام .. ونموذج المرأة المسلمة .. التى تسعد بها الأسرة .. ويستقر بها بناء المجتمع ..

وهو مثل نضربه لقاعدة كبيرة .. قعدها الإسلام .. ويجب أن ندور حولها لنجنى من ثمارها .. قبل أن يسبقنا إلى تقريرها أناس لم يتذوقوا مثلنا حلاوة الإيمان.. ولم يتحملوا مثلنا مسئولية التبليغ ..

******

المرأة

بين السلبية والإيجابية

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ [الفرقان:٥٣ : ٥٤].

جاريتنا التاريخية زوج «عاصم بن عمر » والتى تحدثنا عنها آنفا .. لا يختلف اثنان فى أنها امرأة ذات إرادة ..

إنها لم تجامل أمها على حساب الحق الذى آمنت به ..

وإذ ترفض مجاراة أمها فى أمر كهذا وهى أحق الناس بحسن صحبتها ..

فلن تجامل غيرها أبدا..

والفتاة التى ترفض الانحراف . فى سجوة الليل والناس نيام .. لهى أشد تأبيا عليه فى وضح النهار؟

أى أنها صاحبة إرادة قوية تستمد قوتها من ذاتها .. وليست كغيرها ممن تتماسك إرادتهن حين يرقبهم الناس .. ثم تزايلهن لحظة التماسك لتنهار الإرادة أمام بروق المطامع ..

ويالها من سعادة يحسها عاصم بن عمر . وهو يعايش الجارية ! إنه سيضرب فى الأرض قرير العين .. هادىء البال .. لأنه يخلف زوجة صالحة تبقى تحت سقف البيت فى حراسة إرادة صلبة تتحدى كل إغراء !

إرادة من نوع فريد .. تعيش محكومة بالحق .. والحق وحده .. إرادة لا تنبت الغرور الذى يضخم مواهب المرأة فى عينيها لتبدو أكبر من حجمها الطبيعى .

كما وأنها ليست هى الإرادة المستهترة التى تتجاهل مواهب الآخرين .. وفي مقدمتهم الزوج .. لتبقى بعد ذلك سيدة الموقف . لكنها الشخصية القوية التى تنزل إذا لزم الأمر على إرادة الحق .. ومصلحة البيت ..فى ظل من سيادة الرجل الذى هو القائد الحقيقى للبيت..

فلا المرأة السلبية الضائعة فى وجود زوجها ..

ولا التى تحاول فرض سيطرتها على زوجها :

كلتا المرأتين فاشلتان فى مجال الأسرة .. وعاجزتان عن إشاعة الاستقرار فى أجوائها .

وسوف نجد فى الآيتين الكريمتين عونا لنا .. ونحن نسوق هذا الحديث :

فماذا فى الآيتين الكريمتين ؟:

لقد وردتا ضمن أيات أخر تقود الناس جميعاً إلى التوحيد بقدر ما تنفرهم من الشرك..

والآية الأولى .. تلفت انتباه أولى الألباب إلى ظاهرة كونية من شأنها أن تلقنهم درسا يضعهم حيث أمرهم اللّه :

إنها تضعهم أمام بحرين يلتقيان:

أما أحدهما فعذب فرات يروى غلة الظماء..

وأما الآخر فملح أجاج لا يسيغه إنسان..

ورغم أن البحرين يلتقيان إلى حد التداخل فامتزجا فى مرأى العين .. إلا أنهما لا يبغيان . حيث يفصل بينهما حاجز من قدرة الحق سبحانه .. فيبقى كلاهما محتفظاً بخصائصه : العذب عذب والملح كما هو أبدا .. ملح..

ولو اندفعت موجة حلوة عبر هذا الملح .. فلن تفقد خاصيتها وسوف تعود أدراجها بكل مميزاتها ..

والعكس أيضاً صحيح ..

لقد جعل اللّه بينهما برزخا وحجراً محجوراً يحفظ كيان هذا وذاك .. ومع هذا الاختلاف النوعى فمن ﴿ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر :١٢].

إنهما لا يستويان .. ومع ذلك لا يختصمان !

فبينهما تجانس يجعلهما مصدرا لثروة غذائية معدنية .. وقاعدة لنشاط تجارى هائل..

ومجيء الآية الثانية فى أعقاب تلك ..ربما – واللّه أعلم – كان لمناسبة بينهما ظاهرة من حيث تحدثت الأولى عن الماء .. ثم تسلسل الحديث عن هذا الماء الذى جعل اللّه منه كل شيء حَيّ .. وبخاصة هذا الإنسان بنوعيه : فقد جعل اللّه منه ذكورا ينسب إليهم .. وإناثا يصاهر بهن ..

وانطباعاتنا حيال بحرين يلتقيان ومع ذلك لا يستويان .. ومع ذلك يخرج منهما اللؤلؤ واللحم الطرى .. كل هذه الانطباعات فى وعينا الآن ونحن نحاول فهم الآية الكريمة :

فإذا كانت مادة البحرين واحدة .. ومع هذا .. تجانسا فعملا معا .. رغم اختلاف طبيعتيهما . فلم لا يكون الأمر كذلك بالنسبة للذكر والأنثى ؟

إن مادتهما واحدة هى الماء :

غير أن أحدهما صيغ ليتحمل مسئولية البيت الخارجية .. ويقوم الثانى بتبعاته الداخلية فى إطار من مصلحة البيت التى تعود ثمرتها بالسعادة عليهما معا ..

ومع اختلافهما العضوى الذى استتبع اختلاف وظيفة كل منهما .. إلا أنه يمكن لهما بالتعاون أن يكونا محضنا خصيبا لأجيال تعمر الكون ..

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء:١] .

ومعنى ذلك أن لكل إرادته التى تشركه فى تحمل مسئولية البيت .. ومن معانى التسوية بين الجنسين فى نظر الإسلام أن العمل الصادر من كل منهما له نفس الاعتبار..

فالأب الذى يتحمل مسئوليته فيخوض معركة الحياة من أجل أسرته له أجره .

والمرأة التى تخلص فى إدارة شئون بيتها لها أيضاً نفس الأجر .. فلا تفاوت فى درجة العمل .. وإن اختلفت طبيعته .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ [آل عمران :١٩٥] .

وبناء على ذلك :

فالزوجة التى تحاول فرض سيطرتها على زوجها فى ظروف اجتماعية خاصة لا يمكن أن تنجح كزوجة أبدا..

وسوف تعيش – كأنثى – فى فراغ موحش يفقدها الإحساس بطعم الحياة الزوجية . لأنها بفطرتها تتجه إلى الشخصية القوية متمثلة فى زوج .. تخضع له .. وتجد متعتها فى هذا الخضوع !! .

والرجل الذى يلغى وجود زوجته .. ويعاملها كقطعة من أثاث البيت لن يحس هو الآخر بمتعة الحياة الزوجية .

وهو موقف غير صالح يمحو كل ظل للمودة والرحمة بينهما . ويتجاهل إمكان الانسجام بين الطبيعتين ليكونا مصدرا للخير .. اكتفاء بسلطان قاهر يتفرد به زوج طاغية .. يميت به كل بادرة تعيد السلام إلى البيت المنكوب ..

وحين يبقى الزوج على المسرح .. يوجه الحوادث وحده .. يجنى على أولاد يخرجون إلى الحياة صورا هزيلة لا تقوى على مواجهة الحياة بتقلباتها .. وماذا يبقى للزوج بعد ذلك ؟.. لايبقى له إلا السراب ..

وما أجمل ما قاله الأستاذ العقاد :

« أين هو الرجل الذى يفهم الحرية وهو يسكن إلى شريكة فى الحياة مستعبدة؟

وأين هو الرجل الذى ينعم بثمرة الحرية وهو وليد أمة مقيدة ؟.

وأين هو الرجل الذى تحيا نفسه وقد مات فيها الجانب الذى خلقت المرأة لتحييه؟

إنها العنقاء .. التى يتحدثون عنها فى أساطير الأولين ».

وتحمل المرأة مسئوليتها وتأكيد ذاتها .. لا يضيره أن تكون خاضعة للرجل مرعوسة له .

ونستمع مرة أخرى إلى الأستاذ العقاد حين يقول :

« إن إكراه الأنثى على تلبية إرادة الذكر لا يضير النوع ولا يؤذى النسل الذى ينشأ من ذكر قادر على الإكراه . وأنثى مزودة بفتنة الإغواء .

فهنا يتم للزوجين أحسن الصفات الصالحة لإنجاب النسل . من قوة الأبوة .. وجمال الأمومة .. ويتم للنوع مقصد الطبيعة من غلبة الأقوياء الأصحاء .. القادرين على ضمان نسلهم فى ميدان التناسل والبقاء .

أما لو أعطيت الأنثى القدرة على الإرادة والإكراه .. لكان من جراء ذلك أن يضمحل النوع . ويضار النسل .. لأنه قد ينشأ فى هذه الحالة من أضعف الذكور الذين ينهزمون للإناث ».

وربما وجدنا لذلك مصداقاً فى بعض آثارنا العربية .. التى تؤكد عزوف الفتاة عن الشخصية الهزيلة الهشة .. لترمى بنفسها فى أحضان رجل يحكمها بإرادة قوية لا تلين ..

قالت هند بنت عتبة لأبيها :

« لا تزوجنى أحدا حتى تعرض على أمره . وتبين لى خصاله .. فخطبها سفيان، وسهيل بن عمرو .

فدخل عليها أبوها يقول :

أتاك سهيل ، وابن حرب وفيهما	رضا لك يا هند الهنود ومقنع
وما منهما إلا يواسى بفضله	وما منهما إلا يضر وينفع
فدونك فاختارى فأنت بصيرة	ولا تخدعى .. إن المخادع يخدع

فقالت .. يا أبت :

واللّه لا أصنع بهذا شيئاً ، ولكن فسر لى أمرهما .. وبين لى خصالهما حتى أختار أشدهما موافقة لى .

فبدأ بذكر سهيل فقال : فى ثروة وسعة من العيش .. إن تابعته تابعك .. وإن ملت عنه حط عليك ..

تحكمين عليه فى أهله وماله !؟

وأما الآخر فموسع عليه .. منظور إليه فى الحسب الحسيب والرأى الأريب ..

مدره أرومته .. وعز عشيرته .. شديد الغيرة .. كبير الطهرة .

فقالت .. يا أبت :

الأول : سيد مضياع للحرة !!

فما عست أن تلين بعد أبائها .. وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت .. وخافها أهلها فأمنت .. فساء عند ذلك حالها .. وقبح دلالها ؟!

فإن جاءت بولد أحمقت . وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت .. فاطو ذكر هذا عنى.. ولا تسمه على بعد ..

وأما هذا .. فبعل الفتاة الحرة العفيفة!

فزوجها من أبى سفيان .. وأنجبت منه معاوية ويزيد قبله ».

إن «هندا» تؤكد ذاتها إذ تشترط على أبيها أخذ رأيها فى شريك حياتها .. لتتحمل بعد ذلك مسئولية هذا الاختيار.. ولتكفى أباها مواجهة مشكلات مقبلة تقبلت هى مباديها .. وعليها وحدها عبء حلها .. والنهوض بها ..

وإذا كان أبوها يعرض عليها الأمر شعرا عاطفيا .. فإنها تبدو صارمة الملامح وهى تستبعد العواطف المتقلبة فى أمر يراد له أن يدوم طويلا .. فتطلب تحديد خصائص كل من خاطبيها .. أبى سفيان وسهيل بن عمرو ..

فلندع العواطف جانبا .. ولنبحث عن طبيعتهما فى الواقع .. وبلا رتوش .. ولنطفئ الرغوة العائمة الهائمة .. لنرى ما تحتها من ماء . ثم نفرد الشراع فى رحلة ممتعة مباركة.

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرعد :١٧].

إن هندا لم تعجب بسهيل ذلك الرجل الهين اللين .. مع أنها ستعيش فى كنفه سيدة البيت .. تتحكم فيه وفى أهله .. وما ملكت يداه !

ويا له من منزل تشرئب إليه أعناق الكثيرات .. الباحثات عن زوج .. عن جدار .. يتاح لها أن تفعل فى ظله ما تريد ؟ ! ولن تكون المرأة فى مثل هذا البيت حرة أبدا ..

سوف تجد نفسها السيد .. والمسود .. معا ! ولو ضربت واحداً فى صفر .. فستكون النتيجة صفرا !!

أو هكذا يقول أيضا .. واقع الحياة !.

إن المرأة أنثى .. ومن ثم فهى ضعيفة تبحث لها عن ركن شديد تأوى إليه .. وقد وجدت فى الإسلام ضالتها المنشودة حين قرأت قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَآءِ ﴾ [النساء : ٣٤] ..

﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ..

وقد كانت « هند » ذكية واعية حين قررت أن الزوجة الحرة العفيفة إنما تعيش فى ظل قوى الإرادة صعب المراس :

« وأما هذا فبعل الفتاة الحرة العفيفة » .

فليس هو مستبدا إلى حد يسلبها إرادتها .. لكنه نوع من التعايش السلمى .. يعطى الزمام لأقوى الطرفين وأقدرهما على الكسب وتحمل مغارم الكفاح ..

وفى هذا الإطار . تمارس المرأة حريتها .. مادام ذلك لمصلحة البيت .. وفى حدود نظامه ..

ولم تنس الفتاة الذكية هنا أن تلفت نظر أبيها إلى العامل الأخلاقى فى اختيارها أبا سفيان زوجا :

إنها ستبقى فى ظله « عفيفة » حافظة غيبها .. فالأنثى الضعيفة .. الجميلة .. قد تقع نهب مغريات تأخذ بخناقها .. وربما قادتها إلى اللهاوية ..

لكن شخصية الزوج القوية .. تبقى دائما مهيمنة .. باسطة جناحيها .. فلا تزل قدم بعد ثبوتها .

* * *

دُرُوسٌ
مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّة

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنّ تُرِدنَ الحَيَاةَ الدّنيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتّعكُنّ وَأُسَرّحكُنّ سَرَاحاً جَمِيلاً . وَإِن كُنتُنّ تُرِدنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالدّارَ الآخِرَةَ فَإِنّ اللّهَ أَعَدّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩] .

تفقد الصحابة رسول اللّه ﷺ يوما فلم يجدوه .. وكانت رؤيته بالنسبة لهم أمرا لا يقل أهمية عن دفء الشمس . ورى الماء ، وعبير الهواء .

وغاب الرسول وطالت غيبته ..

وأخذ أبو بكر سمته إلى بيت النبى يستطلع الخبر .. فوجد الباب مغلقا .. ولم يؤذن له بدخول ..

ويستأنف عمر – رضى اللّه عنه – المحاولة ، فلا يحظى أيضا بالدخول . ويمضى وقت طويل .. ثم يؤذن للصاحبين الكبيرين بملاقاة النبى ﷺ داخل البيت .. مخلفين من ورائهما كل الصحابة المشوقين إلى رؤيته .. أو على الأقل .. إلى تفسير واضح لغيابه الطويل .

وكانت المفاجأة أمام أبى بكر ، وعمر :

الرسول عليه الصلاة والسلام يجلس واجما صامتا .. وحوله نساؤه كلهن .. يلف الجميع صمت مطبق !

ويحاول عمر – رضى اللّه عنه – أن يشق حجاب الصمت ليقف على مفتاح الموقف.. وأعانته شجاعة أدبية اتسم بها دون الصحابة جميعا ..

قال عمر :

« فقلت : واللّه لأقولن شيئا أضحك به النبى ﷺ .

فقلت يارسول اللّه :

لو رأيت ابنة زيد – امرأة عمر – ؟ سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها (ضربتها)!

فضحك النبى ﷺ وقال :

« هن حولى كما ترى يسألننى النفقة » !!

وينهض أبو بكر ، وعمر .. هذا إلى ابنته حفصة .. وذاك إلى ابنته عائشة .. كلاهما يحاول ضربها قائلا فى غضب :

« تسألن رسول اللّه ماليس عنده » ؟ !

فقلن :

واللّه لا نسأل رسول اللّه ﷺ أبدا ما ليس عنده .

وقبل هذا يتدخل الرسول الكريم ، فيمنع الصاحبين من كل أذى يلحق ابنتيهما .. من حيث كان العنف مفسدا لقضية الود بين الزوجين ..

ويسكت الصاحبان : أبو بكر ، وعمر ..

ويسكت الرسول ﷺ ..

ثم ينزل الوحى بفصل الخطاب فى هذه القضية .. وما شاكلها إلى يوم القيامة :

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتّعْكُنّ وَأُسَرّحْكُنّ سَرَاحاً جَمِيلاً وَإِن كُنتُنّ تُرِدْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالدّارَ الآخِرَةَ فَإِنّ اللّهَ أَعَدّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩] .

وحتى نعى هذا الدرس البليغ يطالعنا سؤال لابد له من جواب :

لماذا يترك الرسول الكريم صحابته لدى الباب . دون أن يأذن لواحد منهم بالدخول حتى يواجه معه قسوة الموقف ؟

وعلى الأقل .. لماذا لم يستدع أبا بكر ، وعمر كليهما ليكونا معه شريكين فى علاج ما حدث ؟

لعله عليه الصلاة والسلام وهو الزوج المثالى - يعتبر ما حدث مسألة « عائلية» يناط حلها بالزوج نفسه .. وتحت سقف البيت .. بعيدا عن كل إنسان .. ولو كان والد الزوجة نفسه .

إن لكل بيت أسراره ومشكلاته .. وللناس أعين ولهم ألسنة . ومن وراء الألسنة نفوس جبلت على حب الاستطلاع والتدخل فيما لا يعنى ..

وقد يتغير الموقف كله لو تدخل بينهما غريب . فربما انحاز فى رأية إلى جانب إزاء آخر . الأمر الذى يشكل خطرا حين يفضل المظلوم أن ينتقم دفاعا عن تهمة علمها هذا الإنسان الغريب .. وكان من الممكن أن يتغاضى عنها فى غيبته ..

وإذا كان من الممكن حل الخلاف بعد حدوثه .. فإن حله وقت حدوثه ربما استعصى على العلاج .. فليكن الميزان بيد الزوج نفسه .. وإذا استدعى الأمر .. فحكم من أهلها .. وحكم من أهله ليمكنهما - بحكم صلتها بالأمر وحرصهما على الصالح فيه - أن يضعا الأمور فى نصابها .. إذ يكون فى الإمكان حينئذ أن يحاطا علما بأسرار لا يكون من الحكمة أن يعلمها سواهما .. بينما هى جوهرية فى فض النزاع .

إن المرأة قد تتحمل التوجيه من قبل زوجها راضية ولو كان ظالما .. لكنها لا تتحمله من الغير فى وجود هذا الزوج ..

وخير لها ألف مرة أن تعترف بالخطأ من أجل زوجها .. وبيتها . من أن يجىء هذا الاعتراف مجاملة لوسيط بينهما .. لا يمكن أن يكون قدره فى الميزان أثقل من الزوج مهما ، أوغل فى الخطأ ..

ولا يغيب عن الأذهان موقف على - رضى اللّه عنه - ساعة الإفك وحديثة حول عائشة - رضى اللّه عنها - :

لقد أحزنه ما حلَّ بالرسول الكريم كرد فعل لهذه الشائعة المغرضة .. فحاول أن يخفف عنه ما يلاقى من عناء ما حدث ..

وقال له : إن فى الدنيا نساء كثيرات غيرها ..

وظلت الحساسية مستمرة بين على وعائشة ... مع أن قصد الإمام كان ولا شك نبيلا ..

لكنه سمح لنفسه أن يتدخل بين الزوج وزوجه . فكان ما كان مما لست أذكره !

ومن ناحية أخرى .. فللمرأة شخصيتها المستقلة وإرادتها المتحررة وفى استطاعتها أن تعلن رأيها ، وأن تدافع عنه ..

ولها فى الوقت المناسب عقل قادر على الاقتناع والإقناع .. وقلب رقيق شاعر.. يعود إلى الصواب بعد أن يضل طريقه .

وإذا كان الأمر كذلك .. فلماذا لا نعامل المرأة كإنسان حَىٍّ فعال .. بعيدا عن وصاية أبيه أو أمه ! ما دامت لن تستغل حريتهلا ضد مصلحة زوجها .. ومستقبل أبنائها ؟

وكثير من الناس يجعلون الزوجة كائنا حائرا بين وصاية الأم .. وتسلط الزوج الذى يمسك فى يده سلاح الطلاق يهدد به حياتها ..

ينبغى أن تتوقف حركة .. انتداب .. الأم أو الأخ حتى آخر لحظة يكون الكى آخر الدواء فيها !

وحينئذ .. فنحن ملتزمون بما رسمه القرآن الكريم إزاء هذا الموقف الأخير فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾ [النساء : ٣٥] .

إن الإسلام يلجأ فى مثل هذه اللحظة الحرجة والتى تتأزم فيها الأمور إلى الأخيار من أهل الزوج والزوجة فى محاولة للتوفيق بينهما .. ولابد من أن يكون الرسل هنا على نية التوفيق .. والرغبة فى الإصلاح وصولا إلى شاطىء الأمان .. حتى لا يكون الشقاق فرصة لبعض الانتهازيين الصائدين فى الماء العكر تحقيقا لمأرب شخصى على حساب علاقة يُمَكِّنَ للتآمر لو أحسنا اختيار الحكمين كما اشترط القرآن الكريم ..

على أن الآية الكريمة مع ذلك تلزم الأخيار من أهل الزوجين بالإسراع إلى حسم النزاع قبل استفحال أمره .. وذلك عند الخوف من نشوب شقاق قد يطول مداه.. وإن خفتم شقاق بينهما ..

ومن التفريط فـى حـق الزوجيـن أن يجلس الأقربـاء متفرجين بيـن شـامت فـى نكبة.. وحاسد على نعمة .. حتى إذا بلغت النكسـة قمتهـا .. وشـارفت نقطـة الخطـر سارع الأخيار « جدا » بالتدخل بعد أن فاتهم القطار وطار !

أى أن الأمر بالنسبة لهم مجرد تدخل يعفيهم من لوم اللائمين بغض النظـر عـن جدوى تدخلهم .. وهل هو لصالح الطرفين أم لا ؟ .. لا .. إن الإسـراع المصحـوب بالنية الخالصة هو الحل .. وليس غيره شيئا مذكورا إلا أن يكون فصلا مـن تمثيليـة يمليها النفاق .. ولا يرضى بها الإسلام .

وليت شعرى .. إن أعباء الرسالة ضخمة متشعبة .. وإن وقت الرسـول الكريـم غال ، ولكل لحظة دورها الفعال فى خدمة الدعوة ..

فلماذا يكلف نفسه هذا الجهد المبذول فى حوار كهذا بينه وبين زوجاته ؟

لماذا لم يطرد حفصة .. وعائشة .. كل إلى بيت أبيها ، وله فى ذلك ألف عذر؟

لماذا سكت وتحمل وحده تبعات الموقف حتى ساقت الصدفـة ، وحدهـا أبـا بكـر وعمر ليدخلا إليه بعد جهد ؟

إنه يشرع للناس حتى فى هذه اللحظة التى يختلف فيهـا مـع زوجاتـه فهـو يبنـى أمة يرسم ملامح جيل يعمر الحياة بعد ذلك .

والمرأة تشكل نصف هذه الأجيال المقبلة ..

فلماذا إذن تهمل شخصيتها وترفض آمالها ؟

يجـب أن تنصهـر شـخصيتها فـى بوتقـة البيـت بكـل مايثـار فيـه مـن أحـداث .. ومشـكلات .. لتخـرج مـن بيـن هـذه الأحـداث وقـد مارسـت حياتهـا بصـــورة فعالــة مجدية.. تجعلها فى مواجهة الحياة بعد ذلك أصلب عودا .. وأشد مراسـا .. وتصبـح فى نظر أبنائها نموذجا حيا ينسجون على منواله .. ويترسمون خطاه .. ليكونوا بعـد ذلك خير خلف لخير سلف .

أحيانا تتطلع المرأة إلى مستوى فى المعيشة عال إذ تطلـب مـن زوجهـا شـيئا لا تسمح به موارده ..

وإلى هنا والمسألة عادية ..

لكن الغريب فى الأمر . أن يثور فى وجهها متحديا مشاعرها .. ضاربا بكل أمانيها عرض الحائط !

وقد يزيد الطين بلة حين يقول لها :

أتطلبين ثوبا مثل هذا الذى كانت أمك ترتديه ؟ !!

أفتطمعين فى عيشة كتلك التى عاشها أبوك .. يرحمه اللّه .. ويرحم خيمته .. وعصاه ؟!

وهذا المنطق – فضلا عن تجاهله ذات المرأة وكرامتها – يقحم أسرتها لتكون مع ابنتها المهانة طرفا فى النزاع إلى حد يحول بينهم وبين الوفاق ..

إنه منطق يتحدى طبائع الأشياء حين ينكر على الأنثى رغبتها فى التزين .. بينما التزين سنة كونية فوق أنه سنة إنسانية ..

ثم إنه ينكأ جراحات الماضى .. وينشر أمام الناس صفحات من عمر أسرتها طوتها الأيام .. ولا تريد لها أن تنشر .. لأنها تراها عيبا فى تاريخ أسرتها ..

وقد تعبر جدران البيت إلى الجيران .. لتصبح بعد ذلك على كل لسان .. فيتسع الخرق على الراقع .. وتقل فرصة التفاهم .

والرسول الكريم يعلم هذا الصنف من الناس درساً فى الأدب العالى :

فلم يشأ عليه السلام أن يثور فى وجه زوجته لأنها طلبت ثوبا جديدا .. تعبيرا عن فطرة الأنثى ..وبذلك تفادى مضاعفات الموقف كلها ...

وامتدادا لنظراته الواعية هذه .. يتدخل لمنع أبى بكر ، وعمر أن يضر كلاهما ابنته ..

وكيف يتصدى لرغبة فطرية فى كيان المرأة ليحدث بعد ذلك الانفجار وهو الرسول الذى قدس حرية الرأى والتعبير ؟

وبمثل هذا الأسلوب الحكيم لا يورط الزوج نفسه .. بل تظل شخصيته متماسكة فى نظر الزوجة وأهلها جميعا ...

وتبقى فرص التفاهم بين الجانبين وافرة .. تهيئ الجو لعهد جديد سعيد ...

وعندما نزلت الآيتان الكريمتان .. يذهب الرسول ﷺ ليبلغ كل زوجاته بهما .. لتختار كل واحدة طريقها بمحض إرادتها ...

وبدأ بعائشة – رضى اللّه عنها – فقال لها :

« إنى ذاكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » .

ثم تلا الآيتين الكريمتين.

ووجدت عائشة نفسها فى موقف ملك عليها مشاعرها .. ثم أفاقت على صوت الحق فى حديث الرسول ﷺ .. وما كان جوابها إلا أن قالت :

أفيك أستأمر أبوى ..؟ أختار اللّه ورسوله ، والدار الآخرة » . ويقف القلب خاشعا أمام شخصية عائشة فى أفقها الأعلى :

إن عائشة زوجة شابة فى مقتبل عمرها ..

ثم إن فارق السن بينها وبين الرسول الكريم واسع جدا وكان من الممكن أن تنتهز هذه الفرصة السانحة .. لتخرج من بيت الرسول بما فيه من شظف العيش .. وما يتحمله من تبعات كبار .. ثم تعيش فى بيت آخر أيسر حالا .. وأقل مسئولية...

ولو أنها فعلت ما وقف الرسول فى طريقها تطبيقا للآية الكريمة التى تفسح الطريق أمام كل راغبة فى الفراق .. مصحوبة بالكلمة الحانية والسراح الجميل ...

لكنها رفضت هذا السراح المتاح .. وقررت بقاءها فى صحبة رسول اللّهﷺ... معينة له على شدائد الدهر .. مواسية ضد تقلبات الأيام .. فليست الحياة الزوجية لحظة جنس عابرة يمكن أن يمر بها حيوان فى أحراش الغابات ...

كما أنها ليست ثوبا مزركشا .. أو بيتا عاليا .. ولا سيارة تنهب الأرض .. بل هى كفاح فى سبيل تحقيق مثل عال .. فى ظل زوج رءوف رحيم يحمل هموم البشر جميعا .. ويسعى لخراجهم من ضيق الدنيا إلى سعتها .. وهى غاية مثلى .. لو تحققت لكان من ورائها متعة تزرى بكل متاع زهرة الحياة الدنيا ...

والمرأة إنما تكون « زوجة » بمقدار ما نحقق من « تزاوج » وتجانس بينها وبين زوجها .. بحيث تكون رئة البيت الثانية .. يستنشق بها عبير الحياة .. وهما معا على الطريق الطويل .. فى السراء والضراء .. تحفظه إذا غاب .. وتَسُرُّهُ اذا نظر .. ثم تطيعه إذا أمر .

وإن لها من وراء ذلك كله راحة يحسها ضميرها ... لو علمها أشاق «الموضة» لقاتلوها عليها بالسيوف !

أما إذا لم تفهم رسالتها الحقيقية هذه فى نطاق الأسرة .. فحاولت أن تنقض غزلها من بعد قوة أنكاثا .. ثم « استرجلت » أو حولت البيت إلى قاعة جدل ومناظرة حول مطالبها التى ترهق ميزانية الأسرة .. فهى عدو لنفسها أولا .. ثم لأولادها بعد ذلك ..

وعندئذ تغدو مجرد « امرأة » .. مجرد أنثى .. لم ترتفع بعد إلى مستوى المسئولية .. ولم تصل إلى درجة « الزوجة » الصالحة لبناء عش سعيد .. لقد نجحت عائشة - رضى اللّٰه عنها - .. إذ صارت باختيارها الموقف زوجة صالحة..

ومن وراء نجاحها يقف الرسول الكريم حين رزقه اللّٰه تعالى نعمة التوفيق فأعانها على بره والرضا به .

ولك ياعائشة بكل ما فاتك من نعمة الدنيا ما تقر به عينك :

إن دخول رجل الإسلام ..

إن انتصار المسلمين فى معركة ..

إن توفيق الرسول إلى حل مشكلة اجتماعية ..

كل أولئك عزاء .. أى عزاء .. يدفعها إلى مزيد من الصبر مع رجلها العامل الآمل .. محمد ﷺ . ولكن عائشة التى اتخذت قرارها بالبقاء مع الرسول الكريم امرأة تحمل طبيعة الأنثى بحنينها المتجدد إلى النعيم قبل أن تكون زوجة مخلصة ..

صحيح أنها نجحت فى تجربة اليوم حين أفاقت من غفلتها . بيد أن فتنة الحياة مغرية وضغطها عال .. تلاحق الناس فى كل لحظة بما يبهر القلب ويسلب اللب فى الحاح مستمر يخاطب طبيعة البشر الجانحة إلى الرفاهة والنعيم .

وإذا كان الأمر كذلك .. فلابد من أن تستأمر عائشة والديها فى أمر يصعب اتخاذ قرار حاسم فيه .

ومع أن الرسول الكريم يعلم سلفا برأى أبى بكر وزوجه لكنه يصر على أن تعرض عائشة أمرها عليهما :

فربما لو بحث هذا الأمر بعقل الوالدين .. وفى ضوء من تجاربهما الطويلة أن يقولا رأيا قاطعا يحول دون تكرار ما حدث آنفا .

إن سيطرة العواطف فى مثل هذه المواقف أمر لا تحمد عقباه ..

ومعنى موقف الرسول العظيم :

أنه – كزوج – يساعد زوجته على أمر اللّه .. ويعينها على البر والتقوى إذ يبصرها بمواقع أقدامها .. كاشفا لها معالم الطريق فى أمر يتعلق بمستقبلها كله .

ولم يشأ أن يتركها لتصورها المحدود .. تتصرف كما تشاء . ولو قدفعل .. لربما قيل : إنه يحاول التخلص منها وحاشاه أن يخطر بباله شيء من ذلك :

لكنه يربت على كتفيها .. مسخرا كل إمكاناته فى سبيلها .. فراراً من قرار تتخذه غير مقتنعة به .. وحينئذ فسوف ينقلب بها السفين فى بحر الحياة ...

ومن ناحية أخرى :

فهى محاولة ناجحة .. لإسدال الستار على الماضى بكل ذيوله ومشكلاته .. ليستقيم الأمر بعد ذلك كما يحب الطرفان ...

لقد نجح ﷺ كزوج مثالى .. يكشف ببصيرته أبعاد المشكلة .. ثم يعالجها بفكر طليق ..

وتنجح معه عائشة – رضى اللّه عنها – كزوجة مثالية مؤمنة طاف الشيطان بخيالها يوما .. لكنها طردته بكل ما استقرّ فى قلبها من يقين باللّه وثقة بزوجها – الرسول – .. فكانت عند حسن الظن بها ..

وكانت فوق ذلك تفسيرا صادقا لقوله عزّ وجلّ يصف المتقين :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٠ ، ٢٠١] .

* * * * * *

من المحنة .. إلى المنحة

يقول المرحوم الأستاذ عباس العقاد :

« إنها – المرأة – محكومة .. ثم هى محكومة لأنها ضعيفة وما زال من دأب المحكوم أن يحن إلى التمرد والعصيان وأن يلتذ بالمخالفة للمسيطرين عليه .. لأنه بعزة المخالفة يثبت وجوده أو يستوفى حياته » ...

فهى عنده ضرب من حب الحياة ..

« لا تزال أبدًا مع الرجل بين لذة العصيان ولذة الخضوع .. ولعلها لا تعصى لا لتعود كرة أخرى إلى خضوع أعمق وأشهى من خضوع البداية والارتجال .. »

وهى تتدلل .. لأن قيمتها موقوفة على غيرها .. أو معلقة بنظرة غيرها إليها

ولا تعرف قيمتها إلا بمقدار ما تكلف الرجل من الصبر عليها . والدلال نوع من الإباء أو العصيان .. مع إغراء بتكرار الطلب وتكرار المخالفة .

« ويتمنعن وهن الرغبات » .

وإذا اعتملت مثل هذه الرغبات فى قلب عائشة كأنثى .. لكن ولاءها لزوجها الرسول .. وإيمانها بالحق سبحانه وتعالى قد ارتفعا بها لتكون فوق مستوى هذه الرغبات الهابطة .. وكان توفيق اللّه سبحانه عونا لها على أن تترك هذه النزعات باختيارها راضية مستبشرة :

إذا لم يكن عون من اللّه للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

أى أنها بذلت فطرتها كإنسان من حقة أن يتطلع إلى مزيد من رفاهية العيش .

ثم دعاها إيمانها بالحق سبحانه وتعالى إلى أن تقف مع الرسول الكريم فى ساحة المعركة .. فى مواجهة تقلبات الأيام . فاستجابت طائعة ..

فهى فى الحالين « إنسان » حَىٌّ مفكر .. صاحب مشيئة حرة يتصرف بها كيف يشاء ... وهو معنى الاختيار الذى نزلت الآية الكريمة لتغرسه فى وعى الناس وصولا بالزوجة إلى مستوى تستطيع منه أن تشارك فى دعم بناء البيت ...

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيّ قُل لأزْوَاجِكَ إِن كُنتُنّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتّعْكُنّ وَأُسَرّحْكُنّ سَرَاحاً جَمِيلاً . وَإِن كُنتُنّ تُرِدْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالدّارَ الآخِرَةَ فَإِنّ اللّهَ أَعَدّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩] .

إن الإسلام إذ يربط وجود الزوجة بوجود زوجها .. لم يكن ليرضى أن تذوب فى شخصيتة ..

لكنه يريد التعاون بينهما فى إطار من المودة والرحمة ولمصلحة الأسرة ذاتها .

وصحيح أن الزوج .. سيد الموقف .. وصاحب الكلمة الأخيرة فى قضايا الأسرة .. بيد أن ذلك لن يكون إلا لحساب الأسرة .. ومن أجل الأولاد .. هذه البراعم المتفتحة .. والتى لابد لها كى تؤتى أكلها أن تعيش فى جو صحى ملائم .. يتيح لها أن تنمو كما أراد الله للإنسان أن يعيش ..

إن البنت الصغيرة تفتح عينيها .. ثم تراقب عن كثب كيف يعامل أبوها أمها ..

ومع الأيام .. تنعكس فى نفسها صورة لهذه العلاقة تطبعها إلى حد كبير بما تحس وما ترى ..

وسوف يكون لهذا الانطباع أثره الفعال فى مستقبل البنت مع فارس أحلامها فى المستقبل ..

فإذا كانت الصورة أمامها مشرقة ضاحكة .. خرجت من بيت أبيها بنفس متفتحة .. صالحة للعيش الكريم .. قادرة على الإسهام فى صنع أسرة قوية متماسكة..

والأمر بالعكس لو رأت صورة قاتمة حائرة . فإنها حينئذ ستخرج من بيتها بمشاعر الضيق والتردد .. إلى بيت جديد تخبط فيه خبط عشواء .. وتتسع المشكلات أمامها .. وتتشابك أشواكها .. لتعود فى النهاية حملا ثقيلا يضاف إلى أحمال أمها وأبيها ..

أى أن المشكلات تعود مرة أخرى إلى الأم .. إلى مصدرها الحقيقى .. إلى التربة التى نمت فيها بذورها الأولى يوم أن كانت عروسهم فتاة غريرة تحبو :

﴿ فَمَن يَعمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ .وَمَن يَعمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة ٧، ٨].

وإننا لنتأمل الآيتين الكريمتين من سورة الأحزاب .. والتى نزلت فى شأن أزواجه عليه الصلاة والسلام .. لنرى فيهما نوعا من الأدب العالى من قبل الحق سبحانه .. ويؤكد ما استفدنا من هذه القصة خلال عرضنا السابق لها :

ماذا نرى فى الآيتين الكريمتين ؟:

لم يحكم فيهما بالخطأ على واحد من زوجاته لأنها طالبت بزيادة النفقة أو تمنت ثوبا جديدا .

لكن السياق القرآنى يقودهن جميعا إلى الحق فى رفق ولين .. بعيدًا عن الترهيب أو التهديد :

إنكن تطلبن « الحياة » .. وهذا حقكن ..

لكنها « الحياة الدنيا » .. فما رأيكن ؟!

إنها زينة .. طلاء كاذب يخادع الناظرين ..

وقد تسرهم حينا .. لتسوءهم أحيانا ..

« من سره زمن ساءته أزمان »

وهكذا شأن الناس فى دنياهم :

صغير يطلب الكبر وشيخ ود لو صغر

وخال يشتهى عملا وذو عمل به ضجر

ورَبُّ المال فى تعبٍ وفى تعبٍ مَن افتقر

فهل حاروا على الأقدار أم هم حيروا القدر؟ !

ومع أنها زينة .. فإذا قبلتها نفوسكن .. فإليها جميعا .. بلا كبت أو إكراه .. على هذا المنهج :

«تعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا »

سراحا ودودا .. من أجل أيام سلفت من عمرنا أكلنا فيها العيش والملح ! وتقديراً لعشرة طال عليها الزمن .. وينبغى أن تودع بمثل ما استقبلت به من الحفاوة والتكريم ..!

حتى فى هذه اللحظات العصيبة التى قد تتشابك فيها الايدى ويلجأ الأزوج فيها إلى التجريح .. والتجريم أيضا ..

ومن اليوم .. فلكن الخيار .

« فالحلال بين والحرام بين » .

والقرآن الكريم يظلل الصورة بألوانها .. ويعطى هذه « الحياة الدنيا » معناها الحقيقى .. فى محاولة لحمل الزوجة على تفهمها .. تمهيدا للفرار منها إلى الله ورسوله والدار الآخرة ...

فى هذه اللحظة تتفتح النفس . لتقبل التوجيه والترشيد ..فتأتيها الآية الثانية بالحق آخذة بها إليه :

﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب :]

ولقد صحا القلب .. وانتشت النفس فى حمى الآيتين الكريمتين .. فاتضحت المعالم .. وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر :

مالكم كيف تحكمون .. ؟

أفلا تذكرون ؟ !

﴿ قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ [المائدة : ١٠٠] .

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ؟ ﴾ [يونس : ٣٢] .

فتش عن المرأة :

قد يدب الخلاف يوما بين المرء وزوجه .. وقد ينزغهما من الشيطان نزغ يعكر صفو الحياة .. ويكثر من حولهما الصائدون فى الماء العكر ..

ولكن ضوء الإيمان ما يلبث أن يبسط شاعه فيصحو الضمير .. وتهدأ الأعصاب المشدودة .. فتتضح الرؤية ليرسو بهما السفين مرة أخرى على الشاطىء الآمن ..

والذى كان خصاما .. صار ودًا ووئاما .

وقد تلجأ الزوجة الذكية فى مثل لحظة صفاء كهذه إلى استغلالها كى تحقق ما تجيش به نفسها .. فلعل نفس الزوج المنبسطة الآن أن تكون أقرب إلى تحقيق الرجاء منها فى وقت آخر !

ولقد وقفت عائشة هذا الموقف مع زوجها رسول الله ﷺ :

فعندما اختارت اللّه ورسوله والدار الآخرة .. شفعت ذلك برجاء إلى الرسول الكريم قائلة :

« وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت » .

وتريد بذلك أن يجعل من اختيارها سرًّا مكتوما لا تعلمه زوجة أخرى .. وعلى كل زوجة أن تتحمل تبعة اختيارها بمحض إرادتها ..

وما دامت عائشة – رضى اللّه عنها – قد تحملت عبء الموقف كله حين بدأبها .. ونجحت في تحملة .. فلتكن كل زوجة كذلك متحملة عبئه صادرة عن مشيئتها .. لا تقليدا لعائشة التى تصبح فى حالة التقليد مساوية لغيرها فى شرف تحملت هى مسئوليته ..

وربما اختارت واحدة منهن – لو لم تعلم باختيارها – ربما اختارت الدنيا وزينتها .. وحينئذ فسوف تنال عائشة – رضى اللّه عنها – حظوة لديه تعوض تلك المغارم الكبيرة التى واجهتها أمام زوجها .. وأبيها .. ثم بين يدى الوحى الأعلى ..

وصحيح أن غريزة حب الذات أصيلة فى كيان الإنسان حتى عائشة زوج محمد ابن عبد اللّه .. ومن حقها أن تثبت وجودها وتلتزم بها فى تصرفاتها ..

لكن بشرط أن يكون ذلك على طريقة الإسلام العادلة ..الذى جاء ليهذب الطبائع حين تعبر عن نفسها على نحو سوى .. يحفظ للمرء سعادته .. بقدر ما يحقق للمجتمع كله مصلحته العامة ..

وإذا كانت عائشة – رضى الله عنها – تعالج الأمر بصورة تكاد تتجاهل موقف الآخرين .. فإن لها شرفا أكبر وفضلا أعلى فى أن تكون السابقة إلى الخير .. والداعية إليه ..

« والدال على الخير كفاعله » .

وعلى طريقة الإسلام فى تربية النفوس وإعدادها لفعل الخير يعالج الرسول الكريم موقف عائشة بقوله :

« إن اللّه تعالى لم يبعثنى معنفا . ولكن بعثنى معلما ميسرا . لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » .

إن الإسلام الذى يجيز صلاة الأصحاء قعودًا خلف إمام قاعد لعذر حرصا على وحدة الصف .. هو نفسه الذى يرفض كل محاولة تحت سقف البيت يترتب عليها وضع غير متوزان القوى .. تحكمه مشاعر التربص والغيرة ..

وما كان جواب الرسول ﷺ إلاَّ عنوانا صريحا لروح الإسلام الحكيمة فى مثل هذا الموقف .

إنه لم يقل لعائشة مثلا :

« عنادا لك : سأخبرهن » ! .

ولو أنه قالها لما نجح فى علاج موقف أملته غيرة ملحة تطل من قلب امرأة .

وفى نفس الوقت .. يشرح لها طبيعة الرسالة التى نيطت به ووظيفته التى كلف بأدائها .

إنه معلم .. ميسر . ويسره الذى كان معه حين طالبت بزيدة النفقة مازال معه الآن وهو يعرض عليها أن تختار وعلى نسائه معها .. فهو منطقى مع نفسه .. أمس.. واليوم .. لم يكن أبدا متسلطا ولا متعنتا .. وإنما هو كما وصفه الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

ومن صور حرصه ورأفته ورحمته .. أن يكتم اختيار عائشة فى نفسه .. لا تلبية لرجائها .. بل ايمانا منه بالمرأة كإنسان حر .. له مشيئته واختياره القادر فى الوقت المناسب على أن يحدد هدفه .. ويصل اليه ..

ومن ثم فهو يقول لعائشة – رضى اللّه عنها – :

« لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » .

أى أنه لن يبادر بإفشاء السر .. تهيئة لفرصة تثبت فيها كل منهن وجودها ..

* * * * * *

أما إذا طلبت إحداهن معرفة موقف عائشة .. فإنه سيخبرها راضيا مقتنعا بجدوى هذا الإخبار .. على أن يكون نوعا من التجمع فى محاولة لاتخاذ موقف موحد من قبل جميع نسائه .. تتحقق به وحدة الأسرة وتجانسها .. وبالتالى يعود إليها توازنها الذى أوشك أن يختل هناك .. حين اجتمعن من حوله ثائرات مطالبات بزيادة النفقة ..

وقد كان الظن - بمنطقنا البشرى القاصر - أن يلبى رجاء عائشة لتحتفظ لنفسها بهذا الموقف البطولى !

ولو أنه فعل .. لما اتجه إليه لوم ..

فهو الذى يحبها ويقدرها ..

وربما كانت مسافة العمر الواسعة بينهما سببا يدعو إلى إيثارها .. اختصارا لهذه المسافة .. واسترضاء للزوجة الصغيرة !!

بيد أنه ﷺ يعلم الناس فضيلة العدل فى وقت يدوس الناس فيه معالمه . !

إن حبه عليه الصلاة والسلام لعائشة - رضى اللّه عنها - كان لمواهب شخصية تفردت بها .. غير أن الحب لا يبيح له أن يرتب عليه آثارا تتناسى حقوق الغير ..

فالحب عاطفة غلابة تتجه فى مجراها إلى من تهوى .. ومن ثم فهو لا يقبل القسمة على اثنين !!

لكن الشيء المقدور فعلا أن يعدل بينهن فى السلوك على نحو يليق به كرسول كريم ينسج الناس على منواله .. ويتطلعون إليه مثلا أعلى يقترب منه الناس كلما ابتغوا إلى ذلك سبيلا ..

وإنها لصورة فريدة تكشف عن جانب خطير من جوانب عظمته ﷺ .. نعرضها أما أنظار كثير من الأزواج الذين يتعرضون لنفس الظروف .. ثم يتطلعون إلى منقذ يتدخل لحسم الموقف المحرج ..

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وما أشد حاجتنا فى واقعنا الماثل إلى تملى مثل هذا المشهد الرائع الفريد توفيرا لمتاعب كثير من الناس لم يفهموا هذا الدرس جيدا .. فكان ما كان :

فقد تكون الزوجة على جانب من الجمال كبير .. وقد تتمتع مع ذلك بحظ وافر من الذكاء دون غيرها .. وفوق هذا فهى فتاة فى مقتبل العمر . تقف على عتبة العشرين ربيعا .. بينما ينطح بعلها الستين خريفا كل هذه الملابسات قد ترخى عزيمة الزوج أمام دلالها وسوف يجند كل إمكاناته لإرضائها .

وليت الأمر يقف بهما عند هذا الحد .. أذن لهان الأمر إلى حد ما .. لكن هذا التكريم يعقبه تمرد .. وعصيان .. يفقد معه كل خلية فى أعصابة .. إن كان قد بقى له أعصاب!

وتفايا لمثل هذا الموقف المزرى .. نرى الرسول الكريم ﷺ .. يضرب للناس الأمثال حتى لا يضلوا عن جادة الصواب .. وحتى يستعد كل راغب فى الزواج له.. فينظر إلى مستقبله مع من يهوى الزواج منها ببصيرة واعية وبصر حديد .. على الأقل ليوفر على نفسه لحظات رهيبة كهذه اللحظات التى تهون من أجلها الحياة.. ويراق فى غمرتها الحياء !!

وبذلك يكون اختياره طبق ما قرر الحق سبحانه فى كتابه الكريم .. ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَآ أَنْفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء:٣٤].

﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ .

وليست القوامة تسلطا أو قسوة يستغلها زوج ظالم لتصبح فى يده سلاحا فى وجه زوجة وادعة بريئة ..

كما وأنها ليست تراخيا فى الإرادة وضعفا فى العزيمة يتيح للمرأة أن تمسك بالزمام .. ثم يستنوق الجمل !

إنها تعاون على البر والتقوى فى إطار من : المودة والرحمة .. ومن صميم هذا التعاون أن يمسك الزوج بالزمام .. مهتما بشئون البيت .. تحقيقا لهذا التعاون نفسه ..

وقد كان الرسول ﷺ فى القمة .. حين ساس بيته إلى المرفأ السعيد سياسة شهد بها أبو سفيان نفسه حينما علم بزواجه عليه الصلاة والسلام من ابنته .. لقد قالها كلمة باقية :

« هو الفحل ..

لا يجدع أنفه » ! .

أرأيت إلى واحة جميلة .. يوشيها الورد .. ويغشيها النبات الأخضر ؟ يأوى اليها بعدت شقته . وقل زاده ؟

ذلك مثل الزوجة الصالحة :

إنها شجرة ورافة الظل . فواحه العبير .. تتشابك أغصانها عبر المستقبل فتتسيك همومك .. وتواجه معك ريب الزمان .

وإنها لخلك الوفى الأمين .. فى زمان ضلت الآراء فيه ... وقل الاوفياء ..

وإذن .. فما أقسى الحياة فى ناظريك عندما تكون صاحب رسالة تبلغها للناس.. ثم تبذل من ذات نفسك عصارة الحياة فى سبيل غرس أعوادها .. بينما جبهتك الداخلية : زوجتك وأسرتك منك فى واد آخر .. متجاهلة متاعبك .. إن لم ترتكب ما يعوق مسيرك إلى غايتك ..

وإلى أى مدى تبلغ مرارتها فى حلقك حين تقف هى فى صف أعدائك المتربصين بك .. تدلهم على أسرارك متحدية مشاعرك .

إن الخطأ المعفو عنه بالنسبة لرجل عادى .. يصبح فى جانب الرسول جريمة لا تغتفر !

لقد عاش نوح ولوط عليهما السلام هذا الموقف :

خانتهما زوجتاهما فى الدين .. بل دلتا الناس على كل أسرارهما .. وفتحتا كل ثغرة لهم لينفذوا إليهما ؟ !

وكلما دعا رسول منهما إلى التوحيد قالت واحدة :

لا تسمعوا لهذا الحديث .. والغوا فيه ..

وعبرت « واعلة » زوجة لوط عن رأيها بالفعل :

كانت توقد النار ليلا .. وتطلق سحب الدخان نهارا .. لتدل الناس على ضيفانه فيخبثوا بهم !

وقد سجل القرآن الكريم هذا الموقف فى قوله تعالى :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امرَأَةَ نُوحٍ وَامرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحتَ عَبدَينِ مِن عِبَادِنَا صَالِحَينِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَم يُغنِيَا عَنهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيئاً وَقِيلَ ادخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التحريم:١٠] .

ومع أن المرأتين كانتا « تحت عبدين من عبادنا صالحين » .إلا أن ذلك لن يحول دون عقابهما « وقيل ادخلا النار مع الداخلين » .

إن خطورة الآثار المترتبة علىالمعصية فى بيت الرسول تفرض نوعا من العقاب فريدا فى بابه .

لأنها تباشر مهمتها فى قلب القائد نفسه .. وهو قلب الأمة كلها .. إذا صلح .. صلح كله .. وإذا فسد .. فسد الجسد كله .. وشتان بين طبيعة الرسالة وغيرها من وظائف الناس .

إن الفلاح مثلا قد يختلف مع زوجته .. فلا يؤثر ذلك فى عمله .. وفى استطاعته – على أى حال – أن يشق بمحراثه قلب الأرض .. بينما قلبه المحزون يفيض أسى .. ورأسه محملة بهموم البيت وأسراره .. وقد يمسك بمقود بعيره عبر الصحراء الوسيعة حاديا على وقع أقدامه الرتيبة .. فيسكن فى قلبه نباح الألم .. وتسكت عن نفسه فورة الغضب .

أما الرسول – وهو الرائد الذى لا يكذب أهله وتتطلع إليه آمال البشر جميعا – فإن معصيته فى بيته باهظة الثمن .

وإذا كانت زوجاته ﷺقد ارتكبن سيئة فى حقه – وحسنات الأبرار سيئات المقربين – فقد تبن ورجعن إلى الله سبحانه وتعالى ..

لكن الدرس لم ينته عند هذا الحد ..

إن الإسلام رسالة سماوية تستهدف خير الناس وأمنهم .. ولم يفته أن ينتهزها اليوم فرصة ليقول كلمته الأخيرة فى مثل هذا الموقف حتى لا يتكرر مستقبلا .. وحتى لا تتورط فى مثله زوجه أخرى تعيش فى نفس الظروف ..

وهو إذ يفعل ذلك يؤكد لنا أن التربية فن من الفنون له أصوله .. وأن الدعوة إلى الله لها قواعدها ووسائلها ..

وفى مقدمة هذه القواعد والأصول : أن الفضيلة لا تلقن تلقينا فى جو بعيد عن الواقع الماثل ..

والطريق المثلى فى التربية والإعداد أن تستغل المناسبة الحية والتىتستدعى العلاج الحاسم .. ليؤذن الداعية بدعوته ..ويجيء بدوائه الشافى .. فى اللحظة التى يهتز فيها الناس للحادث .. وتتطلع نفوسهم إلى فصل الخطاب فيه .

وفى ضوء ما تقدم نستطيع أن نقترب من المعانى الكبيرة لتلك الآيات الكريمة التى جاءت عقب الآيتين السابقتين من سورة الأحزاب .. يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَنِسَآءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً . يَنِسَآءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً .وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾ [الاحزاب : ٣٠ - ٣٤] .

إن المركز القيادى لزوجات الرسول ﷺ يفرض عليهن نوعا من السلوك بقدر خطورة هذا المركز .

فإذا انحرفت إحداهن .. فقد فَرَّطَتْ فى الأمانة ولم تكن عند مستوى مسئوليتها كأم للمؤمنين .. وسوف تنال جزاءها مضاعفا كفاء خطئها فى حق محمد عليه الصلاة والسلام .. الزوج والرسول .

وتعذيبها فى هذه الحالة يَسِيرٌ على اللَّه سبحانه . إذ لا محسوبية فى الإسلام !

وإذا كان هناك من مجاملة فلحساب الحق وحده بغض النظر عن الأسماء .

والذى لا يحترم وظيفتة التى نيطت به كقدوة ينسج الناس على منوالها فليفسح الطريق لكل من تؤهله إمكانياته لذلك .

وحتى يكون الغنم بالغرم .. فإن الطائعة من زوجاته عليه الصلاة والسلام يضاعف اللَّه أجرها مضاعفة تساوى أثر هذه الطاعة البالغ فى حياة الناس .. وحياة الرسول الذى يتحمل تبعات الرسالة .

إن الزوج هنا رسول يحمل هموم الناس .. ورأسه مثقل بمشكلات مجتمع كبير تتعقبه حيث سار باحثة عن حلول مناسبة !.

وبالتالى .. فكل جهد يقترب به من أهدافه .. هو جهد مشكور مأجور بقدر ما يحقق من نتائج تستوعب الحياة كلها .. طولا .. وعرضا .

وتعالج الآيات الكريمة قضية من أخطر القضايا :

قضية .. اختلاط الجنسين !

إن المرأة أنثى .. بكل ما تحمل الكلمة من معان .. يتعلق بها الغرض .. وتشتهيها النفوس مهما كان مركزها الاجتماعى .. فإذا هى أخلت بكرامتها .. فتراخت فى القول .. ووقعت فيه بصورة تثير الشهوة التى لا ترى .. ولا تسمع أيضا ! .

ومن هنا تقدم الآية نصيحة غالية .. إلى كل أنثى فى طول الدنيا فى شخص زوجات الرسول علسه الصلاة والسلام :

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ [الأحزاب:٣٢].

إن المرأة هى المرأة ..

والرجل هو الرجل .. تبحث غريزته – فى غيبة إيمانه – عن كل ما يحقق رغائبها فوق كل اعتبار .. فلنذكر هذا جيدا فى غمرة ما نحن عليه الآن مما يفترض نوعا مطلقا من الثقة بين الفتى والفتاة ..

لقد صار وهما كبيرا .. يكذبه القرآن .. وينكره الواقع الملموس ..

هذا الواقع الشاهد يصدق ما يقرر القرآن فى هذه القضية .. بما يقرر من مبادىء سليمة يمكن لو اتبعناها أن تبتعد بنا عن مشكلات لا قبل لنا بها .. إلى شاطىء السعادة والأمان

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ .

إن الفتنة نائمة .. لعن الله من أيقظها بالكلمة الطرية .. والمشية المتكسرة أو الجسد العارى .

ولا يفوتنا أن القرآن الكريم يوجه نداءه إلى النساء مباشرة .. وبلا وسيط .

فهو لم يقل للرجال مثلا : قولوا لأزواجكم كذا ..

بل يتجه بالحديث إليهن .. تـأكيدا لمسئوليتهن الأصيلة إزاء حياتهن مسئولات عنها بين يدى الحق سبحانه فى يوم لا تزر فيه وازرة وزر أخرى .

ليست كل زوجة حفصة .. أو عائشة .

لقد نزغهما من الشيطان نزغ .. لكن الجميع أفاق على ضوء الإيمان ... غير أن المعركة مع الشيطان ما زالت مستمرة .. محاولا افساد الحياة بين المرء وزوجته..

فهل نمهد له السبيل إلى إمتلاك زمامنا ؟

ما أحرانا أن نفهم القرآن الكريم .. ثم نعمل به فى ذات أنفسنا قبل أن نلزم به الحكام ..

إننا إذا التزمنا بمبادىء القرآن أتحنا الفرصة لكل مسئول أن يحكم وفق مصلحة الدين والوطن .. وخاصة فيما يتعلق بأمر المرأة التى نناشدها أن تلتفت إلى ماضيها.. ودينها .. فتعنى بنفسها من الداخل .. من القلب .. لتبدو فى عين زوجها كأجمل ما تكون زوجة فى عين رجلها ..

فما تغنى العطور والمساحيق عن فضيلة تراق دماؤها على قارعة الطريق ..

واكتحال العيون أيسر شىء – واكتمال القلوب صعب المنال

* * * * *

صانعة الأبطال

عندما نعود إلى الحياة الإسلامية فى منابتها الأولى نرى امـرأة كأم حكيم زوج عكرمة بن أبى جهل تقدم للعالم زادا طيبا من قيم الصبر والحكمة والوفاء .. فتضـع بها البذور الطيبة لما يتقلب فيه العالم اليوم من تقدم وازدهار : حين فر زوجهـا إلـى اليمن هاربا عند فتح مكة .. لقد تلفتت حولها فلم تجد إلا الوحشة والفراغ .

ومع أن بوادر اليأس تطل عليها من كل أفق .. إلا أن بقية من عروبتها سـاقتها إلى الرسول ﷺ تطلب الأمان لزوجها إذا عاد مسلما .

وراعهـا أن وجـدت فـى شـخصه ﷺ القلـب الكبـير والنفـس المتفتحـة علـى كـل إنسان. ولو كان من ذرية أبى جهل عدو الإسلام .

وأشعل اللقـاء المبـارك فـى نفسـها جـذوة الحمـاس .. واندفعـت عـبر الصحـراء وحدها تاركة صغارها للمقادير ، وتصـور معـى بعـد الشـقة .. ووحشـة الطريـق .. وقلة الزاد تناوش امرأة ضعيفة وحيدة .

غير أن هذه المتاعب كانت فى تقديرها ثمنا زهيـدا تقدمـه لـزوج قاسمته سـراء الحياة وضراءها . ولئن أخذت الرحلة المرهقة من صحتها وفكرهـا .. فقـد بقـى لهـا من الاعتزاز بوفائها ما ينسيها هموم الطريق .

وعندما راودها عن نفسها فتى ضـال .. ثارت فى وجهه . ثـم دمـرت فـى نفسـه خواطر السوء .

ونجحـت حيـن صـبرت .. ووفـت . وكـان جزاؤهـا عـودة كريمـة بزوجهـا فـى محاولـة لإحيائـه بالإسـلام .. وليجـدد بهـذا الإسـلام شـبابا كـاد أن يضيـع بيـن وهـج المصباح ورنين الأقداح !

وفتح الرسول ﷺ ذراعية .. واحتوى العائد المهاجر .. فاسـتحال خلقـا آخـر .. واعلن إسلامه .

ثم عادت الأم والأب إلى صغارهما فى البيت .. لا بقطعـة الحلـوى .. أو دميـة اللعب . ولكنهما عادا بكلمة التوحيد عقيدة فجـرت فـى نفـس الأب ثـورة حملتـه إلـى أرض المعركة فور إعلانه الإسـلام .. ومـن ورائـه مـن بنيـة كـل قـادر علـى حمـل السلام .. وتقف الزوجة المؤمنة .. تطل على المشهد العظيم .. فنرى فى ملامحها..

إرادة التغيير.. ونكاد نحس فى قلبها هذه الطاقة التى نحن أحوج ما نكون إليها الآن... لتمد الحياة الراكدة فى البيت بأسباب الازدهار ...

وإن المرأة – بإيمانها – لجديرة بهذا

وإذا كانوا يقولون : إن وراء كل عظيم أمرأة .. فيهمنا أن نقول : أن المرأة المؤمنة .. هى وحدها التى تكشف عن هذه العظمة فى قلوب الرجال ..

[أطفال .. لكنهم رجال !]

عن أنس قال : أتانا رسول ﷺ ونحن صبيان فسلم علينا . وأرسلنى فى حاجة . وجلس فى الطريق ينتظرنى حتى رجعت إليه قال : فأبطأت على أم سليم . فقالت : ما حبسك ؟ . قلت : بعثنى النبى فى حاجة . قالت : فما هى ؟ . قلت : إنها سر ! فقالت : فاحفظ سر رسول اللّه ﷺ .

يبرز الحديث الشريف مسئولية الدولة والأسرة معا إزاء تربية النشء ، وذلك فى موقفه ﷺ من أنس وصحابه .. ثم فى موقف أم سليم من ولدها .. حين لم يعد إليها فى موعده .

فإلقاء السلام من قبل رسول اللّه ﷺ اختصار للمسافة بين جيلين : رجولة .. وطفولة .رجولة لها من الهيبة ما قد يكبت ملكات الصغير ، فلا تنطلق على سجيتها.. ومن ثم لا تقوم بدورها .

وحين يغمرها الرسول بعطفه فيلقى عليها السلام .. تحس بأنس قربه .. فإذا هى أسيرة حبه .

ومتى نجح المربى فى زرع مشاعر الود فى قلوب تلاميذه ، أحبوا معه مبادئه، وتلقوا عنه دروسه بنفس الحب والتقدير .. على ما تقول التربية الحديثة مرددة ما سبق إليه الإسلام .. وها هو ذا أنس ينفذ مهمة قائده على ما فيها من أسرار محظورة النشر .. آخذا بذلك سبيله إلى رجولة يواقع اليوم أسبابها .

وفى ظل هذا الحنان .. وتلك المسئولية تتكامل الشخصية .. وتبدو صورة الحاكم المسئول عن اختيار أمناء سره .. حتى إذا رشحتهم مواهبهم لحراسة خزائن الأسرار بعد .. كانوا عند حسن الظن بهم ..وهذا ما حدث بالفعل . عندما ذهبت أم سليم بولدها أنس ليخدم رسول اللّه ﷺ .. فكان خير خادم .. لخير مخدوم !

وما كان لأنس – رضى اللّه عنه– إن يبلغ هذا الشأو البعيد فى مستهل حياته .. لولا أمه التى لم يشغلها غياب الزوج عن تربية صغيرها .

لقد كانت مفتحة العين عليه .. مشدودة إليه .. حتى إذا تأخرت عودته .. وضعته موضع المساءلة عند تأخيره الذى خرق نظام عودته وخروجه .. المتفق عليه بينهما . فربما كان إبطاؤه بداية تسيب يلج به بابا فى مرحلة الشباب لا تحمد عقباه .

فلما جاء الجواب مقنعا .. أكبرت فيه رجولته الباكرة .. وزودته بوصية تنمى فيه تلك السجية المحمودة ، التى تجعل من سلوك مثل أنس حجة على بعض الرجال الذين قد تخونهم شجاعتهم فيبوحون بأسرار بلادهم لأعدائها .. وقد يكون ذلك تطوعا !!

لقد احتفظ أنس بالسر .. حتى عن أمه الرؤوم

وأما أم سليم فقد أقام اللّه من عملها وفطنتها فى تزكية سلوك ولدها حجة على مثيلاتها اليوم .

لقد أعدت ولدها .. وهيأته ليقوم بواجبه فى الحياة . وداست بأقدامها نوازع الأنوثة .. وتجاهلت أحلام العيش مع زوج جديد ..

حتى إذا تم وفاؤها لزوجها القديم بتربية ولده دفعته إلى أشراف بيت فى الأرض .. وحق لها بعد ذلك أن تبحث عن نصفها الآخر !!

وهو مشهد يهز ضمائر المؤمنين والمؤمنات .. من أجل أطفال ليس علينا أن نرغمهم على اعتناق الحق .. فهم بفطرتهم متجهون إليه .. وكل مولود يولد على الفطرة . لكننا مطالبون بالسير بهم فى اتجاه فطرتهم السليمة .. وهم مستعدون للسير معنا .. فى اتجاه الريح الطيبة ..

وأذن .. فما أيسر المهمة .. وما أصعب التقصير ، فى وقت تجدى فيه التربية الأولى .. وصولا إلى شباب أمثل ..

ومن غلت دماغه فى الصيف غلت قدره فى الشتاء !

*****

الهجرة والإعداد للمستقبل

من مظاهر الحياة فى القرية :

أن الذين يحاولون صعود الشجرة لا يتعلقون بالأزهار .. لكنهم يتشبثون بالفروع فإذا هم يصعدون إلى قمتها صعوداً .

ومن مظاهر الطبيعة .. إلى حقائق الشريعة التى تؤكد نفس المعنى :

فأصحاب الدعوات وهم يبلغون رسالات اللّه يتعلقون بالفروع الصلبة فى سعيهم إلى المثل العليا .. حتى إذا جد الجد .. كانوا عند حسن الظن بهم رجالا لاتلين لهم قناة !

وهكذا كان محمد ﷺ فى إعداده لأصحابه على مدى ثلاثة عشر عاما فى مكة . وصار معهم كما يقول سبحانه :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

* ولقد كان حادث الهجرة مجالا ظهرت فيه بوادر هذا الإعداد . ولأن الإسلام دعوة عالمية على لسان رسول هو رحمة للعالمين .. فقد كان الكون كله مسخرا لإنجاح الهجرة المباركة :

الشيخ .. الفتى .. الفتاة .. المسلم .. الكافر .. الأم .. الوالد ..الوليد .. الحيوان.. الطير .. الحشرات !!

ذلك بأن الحياة اليوم تأخذ سمتها الجديد .. وعلى كل من ينبض كيانه بأنفاس الحياة أن يخف ليقوم بدوره . دون هذه الخلائق جميعا .. يبقى للإنسان دوره المرموق ليلة الهجرة ..

ويطيب لنا اليوم أن نتأمله عند الخطوة الأولى .. لنستبين بهذه الفاتحة كيف كانت الهجرة بما حفلت به من صور الفداء صورة لإعداد الأمة للمستقبل الكريم ..؟ وكيف فتح بها الحق سبحانه أبوابا .. ومهد أسبابا .. زودت المسلم بوقود مكنه بعد ذلك من الطيران ؟! ..

* **يقول ابن هشام :**

(أمر الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه .. ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها .. واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال :

« إن الله عزَّ وجلَّ قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها فخرجوا أرسالا »

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين .. ومن قريش .. أبو سلمة بن عبد الأسد ..

* **تقول أم سلمة - رضى الله عنها - :**

لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لى بعيره .. ثم حملنى عليه وحمل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجر .. ثم خرج بى يقود بعيره . فلما رأته رجال بنى المغيرة .. قاموا إليه فقالوا :

هذه نفسك غلبتنا عليها .. أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك ؟

تسير بها فى البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده فأخذونى منه قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد .. رهط أبى سلمة .. فقالوا :

لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا .. قالت : فتجاذبوا بنى (سلمة) بينهم حتى خلعلوا يده ..

وانطلق به بنو عبد الأسد .. وحبسنى بنو المغيرة عندهم .

وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة .. قالت :

ففرق بينى وبين زوجى وبين ابنى .. قالت :

فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح .. فما أزال أبكى حتى أمسى .. سنة أو قريبا منها .. حتى مر بى رجل من بنى عمى فرأى ما بى فرحمنى فقال لبنى المغيرة:

ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ .. فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها .. فقالوا الحقى بزوجك إن شئت .. ورد بنو عبد الأسد عند ذلك ابنى) ..

* * *

كى تحيا مبادئ الإسلام

* وهكذا نجح ﷺ فى إعداد هذه الطلائع المؤمنة .. فانطلقوا من بين يديه ومن خلفه يدعون إلى الله بمثل هذا الامتثال الفريد لأمر الله .. وفى أحرج اللحظات لم تكن القضية فى حساب أحدهم أن يموت أو يحيا لكن القضية هى :

ماذا عليه أن يفعل كى تحيا مبادىء الإسلام .. ليسلمها إلى الأجيال من بعده خفاقة الشراع ؟.. أما هذه الحفنة من الوجود الأرضى فقد خلقت لتكون وقودا يدفع عجلة الحياة إلى أمام .

وعلى هذا التصور الرحيب لمعنى الوجود أفاقت الدنيا على لون غير مسبوق من الفدائية عاشت به فضائل الإنسان ...

* وهكذا أيضا تبدأ رحلة الهجرة بهذه الصورة النادرة :

إنها براعة الاستهلال لمعركة الإسلام الفاصلة مع الباطل المتربص .. تتازع المرء فيه غرائز الأبوة .. والأمومة والجنس .. والاجتماع .. ومع ذلك ينتصر عليها .. على مرأى ومسمع من المبطلين الذين يطالعون دروسا جديدة لم تألفها أسماعهم من قبل .. فيتضاءلون على الأقل .. أمام امرأة كانت بالأمس طريدة .. وإذا بها اليوم تقف على بركان من الألم .. لكنها تصابر .. وتكابر القوم .. فى التزام كامل بما تفرضه العقيدة من تبعات ! ..

وعلى الطرف الآخر يعيش زوجها وحيداً .. بعيداً عن زوجه وولده .. فتتكامل الصورة .. وتتضح ملامح المدرسة الجديدة .. التى تطبق مبادىء الإسلام على أرض الواقع .. ومنذ الخطوة الأولى .. يبدو دور المرأة البارز حين تجهاد ليصير جهادها تاريخا حَيًّا لا يترك بعد ذلك عذرا لمتخلف أو متردد ..

فمن قعد به ولده عن الكفاح .. ومن أبطأت به غرائزه فلم يؤد دوره .. ومن قتلته الوحشة والفراغ .. وفراق الأحبة فأرخى يده على الحبل المتين .. كل أولئك.. عليهم أن يرفعوا أبصارهم عالية ليروا أسرة أبى سلمة تضرب الأمثال للناس لعلهم يفهمون .. فتهون الحياة فى تقديرهم .

وعلى الذين يكيدون للإسلام كيدا أن يتأملوا هذه الصورة تتلوها صورة على نفس المستوى .. ليعلموا كم يخطئون التقدير إذا حسبوا المسلمين لقمة سائغة ! ..

تمارين الصبر

* لقد كانت أحداث التعذيب فى مكة تدريبا مستمرا يصل به المسلمون المهاجرون إلى مرحلة من النضج تستقيم بها الشخصية .. وتتكامل القدرة القتالية للمسلم الذى تخطى بالأمس حواجز التدريب .. ثم هو اليوم يبلغ بالتدريب مرحلة الاستعداد .. وها هو ذا يحمل السلاح فيحقق النصر المبين فى غزوة بدر ..

هذه الغزوة التى وافت والنفوس مستعدة لها !

لقد جربت الأم فراق ابنها الجريح ومع ذلك صبرت ومن ثم فهى أجمل صبرا إذا ماشب عن الطوق وتركها ذاهبا إلى المعركة ! ..

بل إنها لتتقبل استشهاده بنفس مطمئنة راضية ..

ثم عاشت تجربة البعد عن زوجها وخاضت تجربتها بنجاح .. وشرب الزوج نفس الكأس المرة ! ..

وإذا فقد توفرت للمعركة عناصر نجاحها .. بعد أن تجردت النفوس من حظوظها الدنيوية .. وتخطت العقبة لحظة السلم .. فبقيت ساعة العسرة صلبة العود بعد أن تمرست قبل بالاهوال ..

إن العين التى رأت ذراع الوليد مخلوعا ليهون عليها أن تراه فى ضوء الإيمان شهيدا ..

* ومعنى ذلك أن انتصار المسلمين فى بدر مع قلتهم لم يكن مفاجأة ؟ ...

لقد كانت أسباب النصر تختمر فى النفوس على المدى الطويل .. لقد كانت هذه الفدائية صورة لما تقوم به اليوم ما يسمى (بالقوات الخاصة) التى تمهد السبيل أمام الجيوش الكبيرة .

خصوبة الشخصية المسلمة ....

* ولا ينتهى حديث أم سلمة عند هذا الحد .. بل مازالت فيه بقية تؤكد خصوبة الشخصية المسلمة العربية الحافلة بأدق الأسرار .. وكل ما فيها من الأسرار يغرى.

ومع أم سلمة وهى تحكى قصتها ذاهبة إلى زوجدها بعد شوق طال مداه ...

قالت :

« فارتحلت بعيرى .. ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ..

ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة .. وما معى أحد من خلق اللّه ..

ولقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة فقال لى :

إلى أين يابنت أمية ؟ ... قلت : أريد زوجى بالمدينة ..

– أو ما معك أحد ؟

لا واللّه إلا اللّه .. وابنى هذا ..

فقال عثمان : والله لا أتركك ..

فأخذ بخطام البعير فانطلق معى يهوى بى .. فواللّه ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ..

كان إذا بلغ المنزل أناخ بى .. ثم استأخر عنى .. حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى .. فحط عنه .. ثم قيده فى الشجرة .. ثم تنحى عنى إلى شجرة فاضطجع تحتها ..

فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله .. ثم استأخر عنى وقال : اركبى . فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى دخلت القرية على زوجى فكانت تقول :

واللّه ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ..

وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة ..)

* إن المرأة التى امتحنت قبل فى زوجها وولدها تتعرض اليوم لامتحان عسير.. عبر صحراء لا ماء فيها ولا زرع .. فى صحبة (شاب) غريب .. وفى صمت رهيب يلفهما معا !! .. وقد نجحت أيضا هذه المرة : كانت كشجرة تقف على شاطىء نهر يتدفق بالماء الطهور .. تستمد منه صفاء نفسها وعفة قلبها .. ولها من أيمانها أبدا عين لا ينصب ماؤها ..

وهى مع رفيقها فى الرحلة مثل يضر به الحق سبحانه وتعالى لصفاء الفطرة الإنسانية .. وإمكان الحياة النظيفة فى ظلها .. وأن ما يطرأ عليها من فساد دخيل عليها..

وبعد :

لقد كان عثمان بن طلحة كافرا يوم صحبته لأم سلمة .. ومع ذلك لم يخطفها !! ولم يعتد عليها ! وكان من كفره مندوحة .. لو أراد ! بيد أنه لم يفعل !! ..

وإذا فاته الإيمان العاصم .. فلم تفته نخوة العروبة التى تعاف أسلوب الحيوان . ثم أسلم عثمان فى هدنة الحديبية ..

ومن يدرى .. فلعل إسلامه بعد ذلك كان ثمرة مباركة لهذه الصحبة الكريمة .. التى طالع فيها معانى الوفاء .. والصبر .. تتحلى بها امرأة مؤمنة وهبت نفسها لربها.. وظلت محتفظة بوفائها . وجاعت .. ولكنها حفظت عفافها ..

فلما وجد نفسه قريبا من مطالع الضوء .. جذبته منها جواذب استقرت به فى النهاية على كلمة التوحيد وإذا لاكانت هذه الطبيعة العربى فى غيبة إيمانه ..فكم تكون المروءة فى صحبته ؟

إن أمة تتألف من مثل هذه الأسرة جديرة بالحياة ..

وأن رجلا مثل عثمان بن طلحة لجدير بالاحترام..

إن فتنة الأنوثة .. وهواجس الوحدة .. وطول البعد عن الزوج .. مع القدرة على الانحراف ..كل ذلك لم يدر بخلد الفتى الأبى ..

لقد التقى بالمرأة عبر الطريق .. فراعة الإيمان الذى يخرج هذه الثمرات فى حياتها .. فتحركت فى نفسه همة تبحث عن الخلاص ..

ولقد وجده على يد زوجة .. وفية .. تعطى فى لحظات ضعفها أقوى ما تشاد عليه الحياة ..

همة ترمى إلى بعيد

قال عطاء بن أبى رباح : قال لى ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟

قلت : بلى .. قال : هذه المرأة السوداء .. أتت النبى ﷺ فقالت : إنى أصرع ، وإنى أتكشف ، فادع اللّه لى ، فقال : إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت اللّه أن يعافيك ؟. فقالت : أصبر .. ثم قالت : إنى أتكشف فادع اللّه ألا أتكشف.. فدعا لها . « رواه البخارى »

فى تاريخ كل أمة ومضات من تجاربها الخالية .. تبصر فى سناها جوانب القوة فى حياتها .. فإذا هى فى ضوء الذكرى أقدر على استثمار ما فى كيانها من مواهب خلقية تمدها أبدا بأسباب البقاء .

وهذا الموقف الذى يرويه عطاء بن أبى رباح .. ومضة من تاريخ أمتنا نرى فى ضوئها كم هى عظيمة تلك الأمة !

ففى الوقت الذى كان فيه شباب فارس والروم مشغولين بسهرات الليل وأحاديث المجون .. كان شباب الإسلام يتطلعون إلى الجنة .. ويتنسمون عبيرها !

وهذا هو ابن عباس ينادى صاحبه « عطاء » ليملأ ناظريه معه بامرأة يقفان بين يديها .. ويشمان من خلالها رائحة الآخرة !

نعم إنها سوداء !

وربما ظلمها العرف الاجتماعى .. فتخطاها وهو يوزع احترامه على الناس بمقياس المنصب .. أو اللون .. ولكن شباب الإسلام .. بالعقل المتفتح البصير .. يتحسسون الطريق إلى الجنة .. وبغريزة التوجيه يعثرون على دليل الوصول إليها.. فى شخص هذه المرأة .. فإذا هم مشدودون اليها .. فى محاولة لتقل خطاهم على طريقها .. وصولا إلى مرضاة اللّه .

إنهم لا يعلقون إبصارهم ، بنجوم الكرة بحثا عن الشهرة !

ولايركضون وراء « كواكب التمثيل إرضاء لشهوة نفس صارت كالهيماء .. لا الماء مبرد صداها .. ولا قاض عليها هيامها .. لكنهم يتطلعون إلى « أصحاب » كالنجوم .. بأيهم يقتدون إذا هم يهتدون .

وها هم أولاء يجدون القدوة فى امرأة تقف بين يدى رسول اللّه تشتكى إليه ما بها.

ومن خلال شكواها .. ورد الرسول عليها تطلع علينا ملامح المرأة المؤمنة تملأ الأفق كله .. وتطل من عليائها .. وفى محنة آلامها .. قمة .. بينما غيرها ممن يرفلون فى حلل الصحة .. يتدحرجون هناك .. تحت قدميها !!

لقد ساقها ضميرها الصاحى إلى ساحة رسول اللّه ليضع حدا لآلامها .

إنها مريضة بالصرع .. وهذا قضاء اللّه ..

لكن المشكلة أنها تقع على الأرض فتتكشف عورتها ؟

وإذن فهى تطلب دعوة من رسول اللّه تسترها بها العورة ..

ويتوقف بعدها وخز الضمير .

وحين يخيرها الرسول ﷺ بين البرء من مرضها .. أو الصبر عليه لتدخل الجنة .. لا تتردد لحظة فى اختيار الموقف الصعب :

احتمال الألم .. وصولا إلى الجنة . أى أن همهتا ترمى بها إلى بعيد..مرتفعة بهذه الهمة فوق مستوى الألم ..

لكن الرواية فى تقديرها لم تتم فصولا !

إنها فى حاجة إلى دعوة منه ﷺ .. حتى لا تنكشف عورتها إذا ما عاودتها العلة ..

إنها على استعداد لتحمل رحلة العذاب اليومية .. ومقاومة نظرات الشامتين .. أو الساخرين الباحثين عن الجديد دائما !

لكنها لا تصبر على كشف عورتها أبدا !

ورغم أن القلم مرفوع عنها حينئذ .. لكن همتها المعقودة بالجنة .. وضميرها المطابق لأصول الحق .. يرفضان بكل إباء أن تبدو العورة حتى فى لحظات الضرورة.

إن العذاب يهون .. بل يستعذب أحيانا .. لكن عذاب الضمير فى منطق الأحرار الباحثين عن الجنة يحملهم على مزيد من الصبر .. تبقى به المبادىء حية فى دنيا الناس . حتى إذا ماتوا .. ولم تتوقف لمماتهم حياة أحد .. بقيت مثلهم العليا ريا وغذاء .. يمد شجرة الحياة بأسباب الحياة ..

للّه .. كم هى عظيمة هذه المرأة المسلمة ؟

لقد رضيت بالآلام تناوش جسداً لم تبق العلة منه إلا شبحا بينه وبين الموت خطوة واحدة .. ولم ترض أبدا أن تشمر عن ذراع .. ولا أن تكشف عن ساق .. حتى ولو فرض عليها ذلك ..

لكأنما كان « سواد » المرأة هنا .. إنسان عين الوجود كله .. يرى به عظمة الإنسان .. بالإسلام .

وكان موقفها ذلك الصلب عتابا من القدر الأعلى يهز به ضمير أمة وأدت البنت يوما .. بينما هى اليوم بحر زخار بأثمن الكنوز ..

وهكذا تبدو المرأة المسلمة منهاجا تربويا عمليا .. رآه ابن عطاء .. وابن عباس..

وتراه أيضا بناتها .. وبنات جيرانها فى السكن .. والعمل .. فإذا هم ينسجون على منوالها .. ويترسمون خطاها ..

فللناشئة أعين .. وبهم نهم إلى التقليد .. فتلقدم لهم أمثال هذا النموذج الحى .. لتقوى روابط الأسرة .. ويستقيم على الطريق استقامة تقيم فى ضمير كل فرد فى الأسرة وازعا ذاتيا يحطمه حتى يظل على استقامته ..

وإذن فلا حاجة بنا إلى « شرطة الآداب » بعد أن صار الأدب سجية وطبيعة !

سجية تلك فيهم غير محدثة   إن الطبائع فاعلم شرها البدع .

ركائز البيت السعيد

* فى قصة موسى عليه السلام مع المرأتين من « مدين » دروس يجد فى ضوئها الباحثون عن السعادة .. منهج ذلك البحث .. وخيوط هذه السعادة ..

وذلك قوله عزّ وجلّ :

* ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ . فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَٰأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ . قَالَ إِنِّيَ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ [القصص : ٢٣ - ٢٧]

كان موسى الفتى المؤمن قويا قوة تحرسها مروءة من صنع الإيمان .. وهى وحدها التى دفعته إلى انقاذ المرأة من صخب البيئة التى تتدافع بالمناكب .. ولا تلقى بالا إلى « حق » المرأة فى أن تأخذ نصيبها أسوة بالرجل الذى يتحرك فوق الساحة.. وحده .. ولقد كان المشهد ملفتا للنظر حقا :

فتاتان فى سن محفوفة بالخطر .. تذودان غنمهما حتى لا تختلط بغنم الآخرين.. وتذودان قبل ذلك عن كرامتها .. حتى لا تخدش فى غمرة الزحام .

* ولقد تأكد ذلك لموسى حين سألهما .. فسقى لهما ثم أوى إلى الظل . كان الظاهر - بمنطق البشر - أن تمتد منه الآمال أفقيا وراء المرأتين بحثا عن الخير المرتقب .. بيد أن آماله امتدت رأسيا إلى « أعلى » تستنزل الخير من مالكه سبحانه وتعالى :

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] .

* وإذا كان موسى عليه السلام هنا يمثل نموذج الفتى المؤمن .. الذى لم تحركه دوافع الدنيا وهو يمد يد المساعدة إلى المرأة الضعيفة .. بل كان مدفوعا برصيد كامل من ثقته بربه .. اشتق منه ذلك العطف السابغ تجاه مخلوق لا يملك حولا أوطولا ..

* فإن المرأة هنا تمثل النموذج الحى للمرأة العاملة :

* المرأة التى تمارس العمل المنوط أساسا بوالدها الذى أقعـدة المشـيب .. وقيـد حركته الكبر .. فأمسكت من بعده بالزمام والتى تعمل بشرطين :

أ – أن تحافظ على نتاجها .. ومصدر رزقها ..

ب – أن تصون قبل ذلك كرامتها .. فلا تمتهنها إلا إذا دعتهـا ضـرورة العيـش إلى خوض تجربة العمل ..

* فالقاعدة أن العمل منوط بالرجل ...

ولا بأس عند الضرورة أن تخرج المرأة من بيتها بحثا عن رزقها ..

شريطة أن تبقى على فطرتها النظيفة العفيفة ..

* إن العمل فى ذاته قيمة فى الإسلام

ولأنه كذلك فلابد أن يكون سبيله شريفا .. والإسـلام أحـرص مـن المـرأة ذاتهـا على كرامتها أن تداس فى صخب الأسواق ...

وعلـى طريقتـه فـى تنـاول الأمـور .. فـإن المبـادئ أولا .. والمبـادئ أخـيراً .. وتسقط الثروة والمنصب من اعتباره متى تعرضت المبادىء للخطر ...

* وحين يرفض الإسلام عمل المرأة التى لا عمل لها .. فيبعد بها عن الأسـواق التى قد تبيع فى ساحتها عفتها ...

أى أنه يؤكد القاعدة ذاتها ...

وحينئذ فإبعاده للمـرأة عـن مواطـن الريبـة إنمـا يصـدر أساسـا مـن تكريمـه لهـا واعتزازه بها .. حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها ...

* إن المرأة المسلمة مطالبة أن تصون كرامتها .. كأخت لها مـن قبـل ارتفعـت إلى ذلك المستوى .. فكانت عند حسن الظن بها .. حين سارت فى صحـراء تصفـر فيها الرياح ومع ضعف الوالد .. وفقدان الرقابة .. كان ضميرها صاحيـا صحـوة لا يخبو بريقها .. تحت أى ظرف من الظروف ..

نموذج فريد :

* وعلى أساس من هذا الطراز للفتى المؤمـن .. والفتـاة المؤمنـة تقـوم الأسـرة وطيدة الدعائم .. عصية على الفناء :

تلتقى الفتاة بربيبها فى العفة .. وصنوها فى المروءة .. فإذا هما محضن جيل جديد .. يجيء صورة مشرفة تعمر بها الحياة ...

ولقد كان من تدبير الحق سبحانه وتعالى أن يلفت أنظارنا إلى هذا المثال الكامل للزواج .. لنفتح أبصارنا عليه .. ثم نشد رحالنا إليه ...

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾

* جاءته تمشى « على استحياء » فهى متمكنة منه .. راسخة فيه .. عمقته فى قلبها يد أبيها الشيخ .. الذى اطمأن إلى ابنته .. ثقة بتربية أخذتها بحياء طبيعى .. غير مجلوب : وليس من ذلك النوع العصرى .. الذى تستدعيه الفتاة فقط عند الحاجة .. ليصير بعد ذلك سرابا :

* ثم إنها تدعوه دعوة صريحة محددة :

(إن أبى يدعوك)

فالدعوة من إبيها ذاته .. لا منها .. وإذن فلا مجال لخواطر السوء فى مثل هذا الظرف ..

ثم يقف حرف التأكيد (إن) على رأس الدعوى ليذهب ببقية شك قد يستغلها الشيطان لحسابه .. شاهدة على أن الدعوى بريئة من كل ما يشين : وأين هذا مما يحدث اليوم ؟

كثير من الناس يدعون .. ثم يضمرون فى أنفسهم رغبة فى زواج مرتقب ينصبون اليوم شباكه فى محاولة للصيد بمعسول الكلام وحلو الأمانى ....

* والقرآن الكريم بهذه اللمحة الفريدة كأنما يعلم الناس أن يمارسوا أمورهم من موطن العزة .. فقد يكسب الإنسان باعتزازه أضعاف ما يكسبه بانكساره :

وقد كسبت الفتاة هنا – ومعها أبوها – بفضل غزتها . رجلا قويا .. أمينا ..

رأته بعينها يرفع حجرا لا يقوى عليه إلا العصبة أولو القوة .

وسمعته يدعو – كما يقول المفسرون :

﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] فاسترعى انتباهها ما استجمعه من عناصر الكمال البشرى :

* قوة مادية .. يحرسها ضمير صاح أحست بصحوته الكبرى حين مشيا فى الصحراء وحيدين فآثر أن يمشى أمامها حتى لا تقع العين منه على مكروه . ولم يستلفت نظرها لون شعره .. ولا جمال عينيه وأناقة ملبسه ..

لكنها نفذت بقلبها إلى الجوهر المخبوء وراء ذلك الساتر الترابى فوقعت منه على ركائز البيت السعيد وحين اقترحت على أبيها استئجاره لم تفصح عن رغبتها.. لكنها نوهت بفضيلة القوة والامانة من حيث هما .. وبغير إضافة إلى موسى بالذات: (إن خير من استأجرت القوى الأمين)

* * *

ولا بأس على الفتاة أن تتحرك رغبتها فى ذلك الإطار . وعلى هذا الأساس .. وعلى كل فتاة تتمسك اليوم بحقها فى الأختيار . أن تثبت أولا كأخت لها من قبل أنها تحمل مثلها نفسا حرة تعينها على صدق النظرة .. ودقة الموازنة .. وسلامة الاختيار

ولا بأس على الوالد أيضا أن يعلن عن رغبته صراحة فى موسى عليه السلام:

(إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى)

لا بأس .. إذا كان الوالد فعلا مشغولا بمستقبل ابنته وسعادتها ..

مادام يجد فى الفتى صلاح دينه وخلقه .. ولكن .. يبدو أن بعض الآباء مشغولون بمستقبلهم دون بناتهم ..

وكيف ؟؟

* إنهم يطلبون المهور التى تقصم الظهور .. فى محاولة لتحطيم كل رقم قياسى فى دنيا الزواج !! يفعلون ذلك .. وهو ما يرفضه الإسلام ..ثم لا يجدون الشجاعة الأدبية ليختاروا لبناتهم مثل هذا الفتى الصالح .. وهو ما يقره الإسلام .

* إن الرجولة المصطنعة لتمسك السنتهم فلا يعرض والد ابنته على فتى كل ثروته فى صلاحه .. ونجاحه .. لينال الوالد بذلك الرفض كفلا من مشكلات سوف يدفعه إليها المستقبل مع ذلك الفتى العصرى الذى أرضى به غروره .. ولم يسعد به ابنته..

إن الطبيعة من حولنا تعلمنا فى صمتها فن الحياة :

شجرة التفاح تختار من التربة ما يناسبها .. وإلى جوارها النخلة الفرعاء تختار أيضا من التربة ما يناسبها .. ولكننا نحن البشر غافلون بل مغفلون !!

كلمة لا بد منها

كان العقاد يعتز بنفسه اعتزازا ناشئا عن عصاميته ..

ومن عصاميته أنه كان يفخر بأنه واحد من الذين اختاروا أساتذتهم .. ولم يفرضوا عليه !

لقد حصل على الشهادة .. « الإبتدائية » .. ثم لم يواصل مسيره فى خط التعليم الرسمى .. لكنه آثر أن يظل حرا : يتتلمذ على من يشاء : يقرأ لهم .. أو يستمع إليهم .. متى شاء وكيف شاء .. لقد كان يتريض فى حدائق التاريخ .. فيختار ما يروقه من أزهارها .. ثم يستمع إليهم .. متى وكيف شاء .. ثم يستوعبه .. ويهضمه.. ليكون من بعد فكرا مستقلا .. مصبوغا بمزاجة .. موسوما بطبيعته .

وهذه الصفحات التاليات : من هذا الوادى ..

أ - فقد كتبت بعد الصفحات السابقه بعشرات السنين وتتم بها اليوم الطبعة الثالثة لهذا الكتاب .

ب - ثم هى نماذج : اخترتها - ومن النساء بالذات - لتكون قدوة حسنة لمن شاء أن يتخذ إلى مثلها سبيلا :

إنها المرأة .. تبدو فى أفضل مواقفها :

أما ..

وزوجة ..

وبنتا ..

ورائدة من رواد العمل الإجتماعى

* * *

تمهيد

عند منابع الأنهار يكون الموج عاليا .. واندفاعه قويا . وهكذا تقول مشاهد الطبيعة ..

ومن الطبيعة .. إلى الشريعة لتجد نفس المعنى : ففى منزل الوحى .. كانت التضحية من أجل الإسلام .. مكلّفة وكان الدفاع عنه مستميتا .. من قبل الرجال والنساء معا .

وإذا وجد الرواد من الرجال من ينوه بجهادهم فى سبيل اللّه .. فقد بقى حق المرأة قائما .. يطالبنا بالمزيد الكاشف عن بلائهن فى التضحية .. تحت راية الإسلام .. اقتداء بالرسول .. واهتداء بالوحى الأعلى .

ذلك بأن المراة لم تخلق فقط للفراش .. ولم يكن جمال خلقها بمغن عن جمال طبيعتها .. عن منظومة القيم التى تسكن قلبها .. والتى كانت سلاحها فى معركتها تحت راية الإسلام ..

[إن اللّه تعالى لم يذكر نساء بصفة مدح لهن .. لجمالهن .. وحسن صورتهن بل ذكرهن بما هو أرفع وأعلى من ذلك . وهو : العفة . والصلاح . والأمانة .. فقال تعالى :

﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ٣٤] .

وهذه السطور تهدف إلى تجلية هذه القيم .. متمثّلةً فى نساء : قانتات تائبات عابدات .. كان لهن دورهن المتميز . والذى صار به للحق صوت مسموع . ولواء مرفوع .

* * * * *

آمنه بنت وهب

ونبدأ السلسلة بنبع الخير .. ومهد الصلاح .. بالقاعدة التى انطلقت من بين يديها مواكب الإصلاح : آمنة بنت وهب أم الرسول ﷺ :

إن اللّه تعالى أعلم حيث يجعل رسالته .. وهو سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسوله اختار له سبحانه رحم « آمنه بنت وهب » ليكون له مستقرا ..

ثم ليرضع مع لبنها عناصر الخلق العظيم .. ثم ليقضى بواكير حياته الأولى فى ظل من حنان أمٍّ رءوم . وعلى قصر المدة التى عاشها فى ظلها .. لكن يبدو أن نهر الحنان .. ونهر الوفاء معا .. كان مبارك الغدوات والروحات .. فوسع قلب محمدﷺ.. ومن فيها .. ولنتأمل الأم الوفية الأبية من خلال وصف كتاب السير لها والذين قالوا : إنها كانت جميلة .. حكيمة .. أى أنها من الناحية الخلقية .. كانت على غاية ما يكون الجمال .. ومن الناحية الخلقية .. كانت فى أعلى مدارج الكمال.. وبهذا الجمال .. وهذا الكمال .. كانت المرشحة الوحيدة لتكون أما .. لأعظم الرجال .

ولم يكن وصف الحكمة عارضا : يظهر ثم يختفى .. ولكنه كان أصيلا أصالة جعلت منه ظاهرة تفرض نفسها حتى إنها كانت تدعى : بحكيمة العرب !

وعلى هذا الجمال ، وهذا الجلال مزيد من فصاحة المقال . والتى كانت بها بين نساء العرب .. سماء ما طاولتها سماء

وكم من النساء شرفن بوصف الجمال .. والحكمة .. لكنهن قد يسقطن فى الامتحان العملى ..

أما آمنة بنت وهب .. فقد أكدت شواهد الامتحان العملى أنها معدن الإيمان :

فقد رحل زوجها عبد اللّه .. وهى شابة فى مقتبل عمرها ثم هى مع ذلك جميلة.. لكنها أتخذت القرار الصعب : حين رفضت أن تتزوج من بعده

وفاء .. وإباء ..

هذا الوفاء الذى كان لزوجها : حيًّا .. وكان له ميتا ! إلى حد أنها كانت تزوره فى قبره بالمدينة رغم بعد الشقة .. ووحشة الطريق . لقد كان حزنها على رحيله

نبيلا .. ولقد خفف من هذا الحزن تلك البشارة التى وافتها وهى غارقة فى همومها لتقول لها :

[لقد حملت بسيد هذه الأمة] . ولقد ولدته فى يسر وسهولة : وضيئا .. نظيفاً . وضاح المحيا .. فكان ذلك إشارة إلى ما سوف تكون الحياة فى ظله من جمال وسوف يظل عمرها القصير حافلا بالدروس والعبر .. مؤكدا لليائسات أن الحياة قد تحرمنا من أعز أمانينا وقد يشتد ضغط الأحداث على قلوبنا .. ولكن طعم الوفاء .. أشهى .. وأبقى .. من كل متاع زهرة الحياة الدنيا .. وأن حيل الأعزاء .. لا يلغى دورهم فى هذه الدنيا .. ما داموا قد خلفوا من بعدهم ذرية صالحة .. مصلحة .. تزدهر بها الحياة .

****

حليمة السعدية

إذا اقتضت مشيئة اللّه تعالى أن يكون رحم « آمنة » له مضجعا .. فقد كان من حكمته سبحانه أن تكون ديار « بنى سعد » له مرتعا .. وأن تكون حليمة له مرضعا!

ذلك بأن اللّه تعالى يعد محمدا لينقذ بـه البشـرية مـن الضـلال .. إلـى الهـدى .. فهيأ له سبحانه الأسباب التى تعينه على تحمل مسئولية هذه المهمة الخطيرة ..

ومن هذه الأسباب :

نشأته فى البادية التى تطبعه بجلال الاعتدال . وفصاحة المقال ..

ثم تمده بالعافية .. وصفاء الروح .. فى هذا الجو الطليق وما يـترتب عليـه من خلُق وثيق .

ثم يكون مثواه فى أحضان « حليمة السعدية » بالذات .. وفى بيت كـان بأخلاقـه أوسع من مجالى هذه الطبيعة .. والذى كان مرشحا .. وبالذات .. لاستقبال الضيـف الجديد ..

ومن هذه الأخلاق التى ارتضعها الوليد محمد :

قيمة الأمل .. فى قول حليمة لما صار بين يديها : [ولكنا نرجو الغيث والفرج] وعلى نفس المستوى كان زوجها الذى قال

[ياحليمة :

واللّه إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركـة] وهـذا هـو الـذى حـدث بـالفعل : فقد ازدانت الأرض بالخضرة .. وحفل الضرع باللبن ...وهكذا تكون الفطرة السوية .. والتى تتيح لصاحبها أن يرى الفجر من بعيد .. ومن خلال أمواج الظلام .

لقد كانت أغنام « حليمة » ترعى فى الوادى الخصيب .. فتعـود شـباعا .. بينمـا أغنام زميلاتها ممن زهدن فى الوليد محمد من قبل .. واللاتى سرقن منها الأضـواء يوما .. كانت أغنامهن ترعى وفى نفس المرعى .. لكنها تعود جياعا .

ولكن الخصب الحقيقى .. والرخاء الحقيقى . كان هناك فى كيان كل أهـل بيـت «حليمة » .. من كل قيمة جليلة يُعدّه الله تعالى بها للمستقبل :

أما هى :

فكانت إلى جانب تفاؤلها .. كانت أمينة على الوليد حفيَّةً به تخاف عليه .. حتى من هبّة النسيم .. فكان لا يخرج إلى البادية إلا ومعه أخوه من الرضاع :

« عبد اللّه »

وكانت أخته « الشيماء » تخرج أيضا فى حراسته خارج الخيمة حيث الهواء الطلق . والطبيعة البكر .. والعواطف النبيلة التى توافيه من هذه الروافد جميعا :

من حليمة وابنتها .. وولدها .. تحت رعاية رب الأسرة الكريم .

ومن أمانتها أنها فزعت يوما وهى عائدة به إلى أمه « آمنة » بعدما علمت من ولدها « عبد اللّه » أن رجلين أضجعاه فشقاً صدره ..

تقول السيد « حليمة »

[خرجنا أنا وأبوه . فوجدناه قائما . ممتقعا وجهه فالتزمته [احتضنته] والتزمه أبوه . فقلنا له : مالك يابنى ؟ فقال :

جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض : فأضجعانى .. فشقًا بطنى فالتمسا فيه شيئا لا أدرى ما هو] ؟

وتأمل كيف كانت قيمة التضحية إلى جانب قيمة الأمانة : لقد وضعت الرخاء السابغ فى كفة .. وحياة الوليد فى كفة ..

فلم تتردد فى اختيار الوليد الذى يجب أن يبقى .. لتبقى به الحياة .. ومن أجل ذلك قررت العودة به إلى أمه فى مكة .

ولقد كان من رحمة اللّه تعالى أن يكافئ أهل هذا البيت العامر .. بنعمة الإسلام: فلقد مرت الأيام .. وظهر الإسلام .. فلما سمعت حليمة به .. أسرعت إلى مكة لتعلن إسلامها .. مع زوجها وأولادها .

وقد استقبلها ﷺ استقبال الأم الرءوم .. والتى كان قلبها نهرا من الحنان .. لم يتوقف عن الجريان .

******

أم المؤمنين : خديجة – رضى اللّه عنها –

قد يغرينا الجمال ... أو يغرنا المال .. ونحن نبحث عن شريكة الحياة . أجل : قد نقع فى أسْر الملامح الباهرة .. بينما الأعماق هناك حافلة باللؤلؤ والمرجان .. ولكنا لا نراها ..

نذكر هذا ونحن نتحدث عن أم المؤمنين خديجة – رضى اللّه عنها – .. والتى كانت تحمل فى كيانها من القيم الأصيلة ما هو أثقل فى الميزان من ملء الأرض ذهبا..

لقد كانت تسمى فى الجاهلية : الطاهرة ..

الطاهرة .. هكذا .. وبإطلاق ..

وتخيل جو الجاهلية الحافل بالترف والمجون .. والانفلات .. تصور هذا .. ثم تصور حجم هذا الطهر فى هذا الجو العكر . إنه طهر واسع .. واسع .. بلا حدود.. عميق عميق .. وبلا قرار !

وكذلك كانت أم المؤمنين خديجة – رضى اللّه عنها – :

لقد كان القدر الأعلى يدبر لها كى تقوم بدورها فى تدعيم رسالة الطهر والنقاء.. فكان لابد أن تتسلح بهذه الخاصيَّة .. حتى تكون هى الأقدر على تحمل مسئوليتها فى التمكين لها ..

إن الرسول ﷺ فى بواكير الدعوة لم يكن بحاجة إلى زواج يحقق متعة الجنس. ولم يكن بحاجة . إلى زوجه يقترن بها عرفيا : فيعيش معها .. ويستطيع أن تعيش بدونها ولكنه كان فى حاجة إلى رفيقة كفاح تحقق بالزواج أهدافا أكبر هى : السكن.. والمودة .. والرحمة .. والتضحية ..

وكذلك كانت خديجة – رضى اللّه عنها – ..

والتى كانت تحمل فى كيانها « طبيعة الأنثى » ولكنها كانت تملك قلبا جسورًا حين وقفت مع زوجها فى مواجهة الإعصار . وعند اللحظة الأولى .. والتى نزل عليه فيها الوحى الأعلى :

ولقد كان فارق السن بينهما دليلا على أنه لم يكن زواج شهوة .. أو شهرة .. ولكنه كان زواج التضحية المرصود أساسا لخدمة الدعوة :

لقد كانت الزوجة الوفية .. حين بقيت معه فى الشعب محصورة .. تأكل معه ورق الشجر حتى تَقَرَّح شِدقاها .. وهى التى نشأت فى بيت العز والرفاهية .. ثم هى الذكية .. التى اختارت ورقة بن نوفل بالذات ليشير على الرسول بما يراه .

ثم هى صاحبة البصيرة الكاشفة .. والنظرة المستقبلية الواعدة .. حين تنبّأت بأنه منتصر فى النهاية على أعدائه .. وأن اللّه تعالى لن يخزيه أبدا وكانت بذلك مثال المرأة الصالحة كما حدد ملامحها الرسول ﷺ لما قال لعمر – فيما رواه أبو داود : ألا أخبرُك بخير ما يكنز المرء ؟ : المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته . وإذا أمرها أطاعته . وإذا غاب عنها حفظته] وكذلك كانت خديجة – رضى اللّه عنها : لقد كانت خديجة – رضى اللّه عنها – : دليلا عمليا على أن المرأة يمكن أن تكون أعظم وأعلم .. وأنبل من الرجل .. وأنها لم تُخلق فقط للفراش والمتعة .. وإنما هى أولى بالإصلاح والتعمير

وهنا سؤال يفرض نفسه :

من أى نبع كان هذا النهر الفياض بالخير ؟

والجواب :

١ – لقد كانت حسيبه نسيبه .. فهى قرشية من بنى أسد .

٢ – ثم كانت – كما قلنا – هى الطاهرة .. والتى استأثرت وحدها بهذا اللقب.. كأنما هى الطاهرة دون سواها .

٣ – فلما دخلت الإسلام .. وصاحبت نبى الإسلام .. تبدت مواهبها أعمق جذورا .. وأنضر ثمارا ..

ألا إنه ما أكثر المؤمنات القانتات .. لكن خديجة – رضى اللّه عنها – تنفرد عنهن بأنها آمنت فى أصعب الظروف :

آمنت به .. حين كذبه الناس .. كل الناس ..

لقد ركبت معه فى زورق صغير .. يترنح فى محيط هادر والليالى من حولهما يلدن كل عجيب غريب من المصائب على ما يقول الشاعر :

صُبَّت علىّ مصائبٌ لو أنها صُبَّت على الأيام صِرْنَ لياليا

وفى هذا الجو الغائم القاتم .. يظهر المعدن الأصيل .. يظهر معدن بعض الناس أغلى من الماس ! ولقد تدفن فى التراب خاتما صدئا وآخر ذهبا .. فيظل الذهب محتفظا ببريقه حتى وهو فى جوف التراب .. وإذا كانت خديجة – رضى اللّه عنها – قدسا عدته ﷺ بالمال كفاية لجسمه .. فقد كان وفاؤها كفاية لقلبه .. وسلام عليها فى الخالدين .

أم المؤمنين

أم حبيبة – رضى اللّه عنه –

كـانت حياة أم المؤمنيـن « حبيبـة » سلسلة مـن الامتحانـات الصعبـة . . والتـى خاضتها بنجاح ..

كانت جهادا موصولا . وصـبرا جميـلا ضـد غرائـز : حـب الوطـن والجنـس . وحب الذات :

كانت زوجة لعبيد اللّه بن جحش .. فلما أسلم . أسلمت معـه . بينمـا بقـى أبوهـا على الكفر .. وكان إسلامها ضربة موجعة له من حيث كان زعيـم قريـش بعـد أبـى جهل .. وخروج ابنته من طاعته إضعاف لهيبته .

ويبدو أنها – لهذا السبب – كانت تلاقى من أبيها عنتا .. فلمـا أذن للهجـرة إلـى الحبشة .. كانت هجرتها مع زوجها :

أ – فرار بدينها .. أوّلا .

ب – ثم تخلصا من ضغوط أبيها ثانيا . ولا خير فى وطـن يكـون السـيف عنـد جبانه .. والمال عند بخيله . وفى مستهل حياتها .. رأت زوجها فى المنام على غير ما يهوى الحق : وكان ارتداده عن الإسلام تفسـير هـذه الرؤيـا . التـى وضحـت كـم كانت « لأم حبيبة » شفافية تخترق بها حُجُب الغيب ..

ولقد بدأت بارتداد زوجها مرحلة من مراحل جهادهـا الموصـول : حيـن حـاول إجبارها على الارتداد .. وبنفس القوة رفضت عرضه الماكر .. صيانـة لنفسـها عـن وصمة الكفر بعد الإيمان ومن صان نفسه .. صان عرْضا ..

ولا ينبغى لمن كان بالإيمان سماء .. أن يكون بالردة أرضا !

وتأمل من أسرار هذا الموقف :

المرأة .. الضعيفة .. تجد نفسها فى موقف لا يُلَقَّاهُ إلا أولو العزم :

الوالد فى مكة .. مشرك ..

والزوج هنا .. مرتد .. والأم مسلمة .. واليتيمة « حبيبـة » فـى حجرهـا .. هـى التى ستدفع ثمن هذا التمزق .. وهذا الضياع ..

وتحس الزوجة بالوحشة .. وبالوحدة .. ألا وإنه : ليس الوحيد من لا يزوره أحد .. ولكن الوحيد حقا : من لا يجد من يزوره ؟

ومن ذا الذى تزوره .. « أم حبيبة » الآن .. بعدما نُسِفَت كل خطوط الدفاع من ورائها : فالوالد شامت ..

والزوج مفارق ..

ولسان حالها يقول :

إنى أَلِفْتُ الحزن .. حتى إننى لو غاب عنى .. ساءنى التأخير

لقد كانت « أم حبيبة » : تأوى من زوجها « عبيد اللّه» إلى ركن شديد .. ولكن: ما الحيلة وقد فقدت النسور براعة التحليق فى جو السماء .. لتموت هناك فى حظائر الدجاج ؟!

إنهم يتحدثون اليوم عن المرأة الفولاذية .. وأين هى من هذه الإرادة الإيمانية التى لا تزيدها المحنة إلا اصطبارا وانتظارا للفرج القريب :

أجل .. لقد صبرت على ريب الزمان .. بل صابرتها بل كابرتها وكان فى قلبها لون من القلق الإيجابى : القلق .. الذى يستهدف غاية بعيدة .. وليس هو الطمأنينة الراكدة العقيمة .

أما عن الفرج .. فقد جاءها على لسان رسول أتى ليخبرها بأن رسول اللّه ﷺ يريد الزواج منها ..

ولقد تم الزواج فعلا .. وانضمت به أم حبيبة - رضى اللّه عنها - إلى كوكبة الطاهرات من أمهات المؤمنين .. وكان هذا الانضمام حدثا فريدا .. انتزع الاعتراف من أبى سفيان والذى قال لما سمع بهذا الزواج :

هو الفحل .. لا يجدع أنفه !

وكان شاهد صدق على أن محمدا ﷺ لا يتزوج للشهوة .. ولا للحب كما يفهمه الوالهون ..

وإنما هى النظرة المستقبلية .. البعيدة المرمى .. والمستهدفةُ مصلحة الدعوة .. لا منفعة الداعية !

[وكثير من العشاق يملأون حياتهم بنساء كثيرات .. ولكن كئوسهم فارغة] ولكن.. المسلم دائما شبعان ريان .

ولكن هل توقف مسلسل الامتحان فى حياة أم المؤمنين حبيبة ؟

أبدا :

إن الحق الذى تنامى فى قلبها مع الأيام .. والذى استوى على سوقه يعجب الزراع .. إن هذا الحق يتعرض الآن لأصعب امتحان حين وفد أبوها سفيرا لقريش لدى الرسول .. فطوت عنه الفراش لأنه مشرك نجس .. لقد اختارت أن تنحاز إلى الحق متجاوزة فطرة البنوة فى كيانها ..

وهكذا : كانت حياة أم حبيبة .. كانت شهادة على أن المرأة التى وأدوها صغيرة بالأمس .. هى هى نفسها التى أثبتت بالإيمان .. أنها جديرة بالحياة .. بل صانعةُ هذه الحياة .

أم المؤمنين عائشة – رضى اللّه عنها –

وُلدت فى الإسلام .. فلم تُصبها لوثةُ الجاهلية .. ثم رباها أبوها فى صباها والنبى ﷺ فى شبابها .. تربية رشحتها لتكون أفضل النساء بعد خديجة ، وفاطمة – رضى اللّه عنهما – . وأعظم بوليدة يصنعها الصديق على عينه حتى سن التاسعة ثم يلقاها الرسول فى هذه السن الباكرة ليكون الإيمان لحمتها وسداها وإذا كانت خديجة– رضى اللّه عنها – رعت الإسلام وهو نبته ضعيفة فقد صار الدين على عهد عائشة – رضى اللّه عنها – غصنا باسقا : [امتد فى المكان .. حتى شمل الدنيا كلها .. وفى الزمان حتى لامس الخلود]

وقد بدأ ذلك التميّز فى مختلف المجالات : فمن الناحية العلمية :

كان لها دورها المرموق فى البلاغ عن الرسول ﷺ ..ثم كان لها من بين الصحابة تلاميذ نهلوا من علمها وأدبها : فلقد كانت المفتية .. التى تصيب الحق .

والواعظة .. التى تنطق بالحكمة .

ثم هى : المحدِّثة .. المفسره ..الأديبة .. وإذا كانت أختها أسماءُ .. لم ترو إلا ستةً وخمسين حديثا .. فقد روت هى ما يربُو على ألْفين ...

ولم تكن – رضى اللّه عنها – مجرد زوجة : لكنها كانت رفيقة كفاح :

لم يزعجها الفقر .. ولمْ يبطرها الغنى .. منطلقةً فى ذلك من يقين بأن الدنيا صغيرة .. فلا ينبغى أن تفتن النفوس الكبيرة .

كانت تلك الزوجة الطبيعية :

تقول عند الغضب ما يقول غيرها . ثم هى تغار على زوجها .. ولكنها فى الغضب : لا تقول منكراً من القول .. ولا شائنا من الفعل ..

وحين تغار .. فإنها الغيرة [التى تنبه الحب .. ولا تقتله وتزكيه .. ولا تطفئه]!

وهى الزوجة الوفية .. والتى كان من وفائها أن تستوثق من حبه ﷺ لها :

قالت له يوما :

كيف حبك لى ؟ فقال :

كعقدة الحبل [فى المتانة والقوة] ، وحين ينتشى فؤادها للجواب الحبيب .. فإنها لا تنسى أن تسأله بين الحين والآخر .. لتطمئن على هذا الحب الأثير .. فتقول له : كيف حال العقدة ؟ فيقول : على حالها !

وأم المؤمنين هنا تعلم الزوجات أن الحب بين الزوجين كالرصيد فى بنوك الدنيا :

فإذا لم يكن هناك « إيداع » فلن يكون هناك رصيد نسحب منه !

والإيداع هنا كما تعلمنا الصديقة بنت الصديق : هو ذلك الاهتمام المتجدد بالعلاقة الزوجية .. والتى منها : إشعار الزوج بأنه فى بؤرة الشعور وأن غضبه ورضاه . هو قضية الزوجة اليومية .. والتى لا ينبغى أن تشغلنا عنها هموم العيش .. والأولاد .

وإذا كان هناك من يقول : أريد أن أسعد .. وإن خسر الآخرون .. فإن هناك من يقول :

أريد أن أسعد .. ويسعد معى من أحب :

[أن عطف عليه .. عطف الحبيب على الحبيب . واتصل به .. اتصال القريب بالقريب وألتحم به .. التحام النسيب بالنسيب] .

وقد تتغير الدنيا .. ونفاجأ من أحداث الحياة بما لم يكن يخطر لنا على بال .. فماذا تفعل الزوجة الوفية الأبية ؟ قد تصاب الزوجة بالغرور .. أو بالأسى يزحف إلى قلبها من قسوة تنصب عليها من زوجها . وعندئذ تفقد القدرة على الحوار البناء وسوف تقول .. ولكن بلا علم

وتتصرف .. ولكن بلا دليل

ويحس الزوج أنه أمام جدار من الغرور .. أو الإحباط غير قابل للاختراق ..

أما أم المؤمنين عائشة – رضى اللّه عنها – فإنها تعلم الزوجات فن الوداد .. حين كانت تغضب من زوجها .. فلا تهجر إلا اسمه أما هو فباق فى الفؤاد .. لا يغيب .. لقد كانت مدرسة .. حتى فى حادث الأفك : لقد وضعها اللّه تعالى علامة على طريق النساء العفيفات لتكون على الطريق دليلا يؤكد أن العاقبة للتقوى ..

* * *

أم المؤمنين حفصة – رضى اللّه عنها –

من طبيعة الإنسان أنه يضن بنفسه .. فلا يضعها فى المواضع التى تَصْهَر معدنها ..

ولذلك .. تكفل اللـه تعالى بالبلاء يصبه على الإنسان فى مثل قوله تعالى {لنبلونكم ..}

حكمة منه سبحانه يصفى بها قلب الإنسان من علائق الدنيا .. ليتفرغ لتحقيق غرضه الأسمى كخليفة للّه فى أرضه .

ولقد أخذ عمر – رضى اللّه عنه – نصيبه من هذا البلاء .. يوم أن رحل زوج ابنته حفصة والتى عاد إلى البيت ليجدها وحيدة باكية .. ولعله كان أقسى يوم فى حياته :

أولا : كأب تنازعه غريزة الأبوة ..

وثانيا .. كان واقعا تحت ضغط عادة قبلية تقول: إن وجود البنت قعيدة فى البيت منقصة ، وثالثا : لقد كانت حفصة تحت العشرين .. وهى مرحلة خطيرة وهى أشد خطورة على من تزوجت .. ثم لما بدأت أنوثتها تتفتح .. ترمّلت !

وتحت هذه الضغوط .. بدا حجم المشكلة ضخما .. وكان لابد أن يتحرك عمر – رضى اللّه عنه – .. والذى عرض ابنته على أبى بكر وعثمان – رضى اللّه عنهما – عرضا انتهى بزواجها من رسول اللّه ﷺ ..

وكأنما كان زواجها الأول مرحلة من الابتلاء .. يصفو به قلبها من علائق الدنيا.. لترتفع إلى سماء النبوة .. بهذا القلب الصافى .. وإذا بمواهبها تتفتح فى دوحة النبوة ..

وإذا كانت فى نساء الدنيا من هى كالبحيرة الراكدة .. المسكونة بالطين والحصى .. فإن القلوب الكبيرة .. عن طريق المد والجزر .. تتحرك وتتلاحق أمواجها .. ثم تعطى الحياة من لدنها لؤلؤا ولحما طريا .

وكذلك كانت أم المؤمنين حفصة – رضى اللّه عنها – .. والتى انضمت إلى أمهات المؤمنين .. فأضافت إلى البيت المبارك عنصرا كان لابد منه .. كى تأخذ طاقة الزهر شهدها الرائق .

ولا نتدخل هنا لبيان هذه الخصائص التى كانت بها فريدة متميزة ، وإنما نصغى وبكل طاقة السمع فينا إلى جبريل عليه السلام .. وهو ينوه بهذه الخصائص التى أرسله بها رب العزة سبحانه .. وذلك عندما طلقها رسول اللّه ﷺ مرة .. فنزل جبريل عليه السلام من فوق سبع سموات ليقول له :

[إن اللّه يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر]

ثم وصفها بأنها :

[صوامة قوامة .. وهى من زوجاته فى الجنة]

ولقد كان « الفاروق » – رضى اللّه عنه – أدرى الناس بابنته .. وما ورثته عنه من حدة فى المزاج .. فكان دائم النصح لها أن تكون عند حسن الظن بها .. محذرا إياها من انفلات انفعالها .. ومما قاله لها يوما : [يابنية : لا يغرنك هذه التى أعجبها حسنها . وحُب الرسول ﷺ لها . واللّه لقد علمت أن رسول اللّه ﷺ لا يحبك.. ولولا أنا لطلّقك]

ومع هذه المتابعة الأبوية إلا أن طبعها كان غلابا .. فكانت تغار وربما اشتط بها المزار .. وبخاصة من « مارية » لما أنجبت للرسول ولدا .

وإذا كان من أسماء الأسد « حفص » فقد كانت « حفصة » ذلك الأسد الجريح .. ولا يضرب بقوة إلا الأسد الجريح . ولكن حكمة المصطفى ﷺ .. ووعى الفاروق– رضى اللّه عنه – كانا يشكلان معا تلك الضمانة العاصمة من الزلل . فى لحظة من

لحظات الضعف الإنساني .. لتعود أم المؤمنين « حفصة » إلى التثوب في شخصيتها.. صوامة .. قوامه .. أمينة .. حكيمة :

أما صومها وقيامها .. فلها ..

وأما أمانتها فقد تأكدت عندما ائتمنت دون غيرها على المصحف .. الذى ظل وديعة غالية عندها .. وما ظنك بامرأة تؤتمن على روح الأمة .. ومستقبلها . تلك المرأة التى كانت بالأمس القريب .. توأدُ حية .. تصير اليوم حارسا يقظا .. على حياة الأمة كلها .

وإذا كان إعجابنا بأم المؤمنين لا ينقضي .. فإن ذلك لا ينسينا دور الأب فى إصلاح ابنته .. حين كان يكفكف من غرورها الذى قد ينحرف بها حتى لا تنسى حجمها الحقيقى.. وذلك فى مثل قوله لها :

[أين أنت من عائشة ؟ .. وأين أبوك من أبيها ؟]

وأما عن حكمتها :

فقد بدت مظاهر هذه الحكمة عند ما اشتدت « الفتنة » فقد قررت عائشة – رضى اللّه عنها – أن تنضم إلى الجيش الذاهب للمطالبة بدم عثمان .

ولأنها كانت تعلم من حكمة « حفصة » – رضى اللّه عنها – .. فقد عرضت عليها أن تصحبها .

وفى هذا الوقت بالذات كان أخوها عبد اللّه بن عمر – رضى اللّه عنه – قد نصحها أن تنأى بنفسها عن هذا المعترك .

ولقد آثَرَتْ أن يكون مِسكَ ختامها أن تتفرغ لعبادة ربها . ولقد تمّ لها ما أرادت فذهبت إلى ربها طاهرة القلب .. طاهرة اليد من دماء المسلمين .

* * * *

أم المؤمنين : أم سلمة - رضى اللّه عنها -

ما أجمل الدين والدنيا .. إذا اجتمعا .

وقد اجتمعا فى شخصية أم سلمة - رضى اللّه عنها - :

لقد كانت هناك مجموعة من روافد الخير .. تصب كلها فى كيانها .. فهى تتصل بنسب إلى رسول اللّه ﷺ .. إذ هى ابنة عمته .

ثم هى سليلة بيت العز والشرف : فأبوها « زاد الركب » والذى ما كان يسمح لأحد يرافقه فى سفرٍ أن يحمل معه زادا .. حيث يتكفل هو بالزاد كله .

هذا إلى جانب ما كانت تتميز به من جمال الصورة . وبهاء السمت .

ومن وراء ذلك كله طبيعة خبرة نيرة : كانت بها أحزم رأيا .وأبعد نظرا..

بدليل أن نشأتها فى بيت العز لم تمنعها من دخول الإسلام فى مقتبل عمرها :

بل كانت أول مهاجرة إلى الحبشة

ثم أول مهاجرة إلى المدينة أيضاً . وذلك فى صحبة زوجها - أبو سلمة - والذى .. سبقها مهاجرا إلى اللّه .. فلما لحقت به .. بدت من خلال هجرتها مع دليلها على الطريق .. شواهد على فطرتها السليمة.. وشرفها الرفيع ..

ثم كانت لها مع زوجها أبى سلمة جلسات وادعات كانت دروسا فى الود .. والوفاء .. والحكمة :

قالت لزوجها أبى سلمة يوماً :

بلغنى أنه ليس امرأة يموت زوجها . وهو من أهل الجنة . ثم لم تتزوج بعده إلا جمع اللّه بينهما فى الجنة ..] تريد بذلك أن يتعاهدا .على ألا يتزوج أحدهما إذا مات الآخر .. فقال لها : أتطيعيننى ؟ قالت :

ما استأثرتك إلا وأنا أريد أن أطيعك . قال : فإذا مت فتزوجى .. ثم قال :

اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً منى : لا يخزيها . ولا يؤذيها ، وبهذا الدعاء .. أثبت أبو سلمة أنه صادق مع نفسه حين يسمح لها بالزواج من غيره .. لو مات قبلها .

ولاحظ أن الزوجة هنا هى صاحبة مبادرة الوفاء .. والتى كانت قرآنية النظرة حين تصورت العلاقة الزوجية .. علاقة أبدية تتخطى الزمان ليكونا رفيقين فى

جنات عدن – وهى رسالة عتاب موجهة إلى الأزواج اليوم .. تؤكد أنه لا يكفى الحب رابطا بين الزوجين .. فما كل البيوت بنيت على الحب .

وإنما هو الود الذى يضرب عروقه الذهبية فى القلوب فإذا الوفاء للرفيق حيا .. وللرفيق ميتاً !

وكما يقول الأدباء :

[من الحماقة أن يبنى الزواج على الحب وحده ؟

من ذا الذى يبنى داره على كثيب من الملح .. فى طريق السيل ؟ الحب زهرة فواحة .. ليس لها فى الروض مثيل .. ولكنها تذبل عند اللمسة الأولى]

ولقد مات أبو سلمة .. وبقيت أم سلمة على ودادها القديم .

ولكن دور المرأة الحكيمة لم ينته ولله حكمة هو بالغها

لقد تقدم لخطبتها : أبو بكر .. ثم عمر .. لكنها اعتذرت اعتذارا جميلاً ..

ولعل طاقة من الوفاء كانت من وراء اعتذارها ..

وفاءها للراحل العظيم .. والذى يأخذ صورته العملية بحسن رعايتها لولده من بعده.

وكانت المفاجأة .. حين تقدم ﷺ ليطلب يدها . الرسول ﷺ بكل هذه الوساوس التى تقطع لقد كان الاختيار صعباً :

فمع أنها فرحت بالعرض فرحة لا تسعها الدنيا .. إلا أن شجاعة الاعتراف بالحق تلاحقها .. فتعتذر .. بأنها : مسنة .. ذات عيال .. وإنها لغيرى ويذهب الرسول صلى الله عليه وسلم بكل هذه الوساوس التى تقطع . عليها الطريق .. حين طمأنها على نفسها .. وعلى ولدها ..

وتلعق المرأة الشريفة جراحها .. عازمة على أن تكون له ﷺ نعم الزوجة الوفيه المتفرغة لخدمته .. وذلك حين بعثت بوليدتها « زينب » إلى حاضنة .. حتى لا تمنع رسول الله حاجته !!

هكذا .. مع أنه ﷺ لم يضق بها .. بل كان يبالغ فى مداعبتها وملاعبتها ..

أما بعد فقد قالوا : إن « أم سلمة » كانت تشغل مكان « أم المساكين » زينب بنت خزيمة .. ولكننا نقول مع القائلين : بأنها كانت تشغل مكان خديجة الحكيمة .. ذات الخبرة والرأى السديد ..

وهذا الذى أكدته الحوادث فى وقوفها ناقدة لعمر .. على صرامته .. ثم اقتراحها يوم الحديبية .. والذى انقذ الله به الأمة .. ثم عزوفها عن الدخول فى الفتنة الكبرى . وكان من تدبير الله تعالى أن تكون أطول نسائة عمرا .. لتواكب الحياة بحكمتها . فى أطول قصة من الكفاح .. والنجاح

أم المؤمنين : زينب بنت جحش – رضى الله عنها –

كان « زيد بن حارثة » – رضى الله عنه – عربياً :

له جذوره العربية .. إلا أنه اختطفته عصابة ثم باعته فى الأسواق .. وانتهى أمره . ليكون مولى لرسول الله ﷺ ..

ثم صار من بعد قائدا عسكريا مشهودا له بالبطولة وحسن الإدارة حتى قيل : لو كان زيد حيا يوم وفاة الرسول ﷺ .. لا ستخلفه . ولقد بلغ من تقديرة أن تبناه الرسول حتى قيل : زيد بن محمد واقتضت مشيئة الله تعالى أن يقضى على النزعة القبلية .. وكان من حكمته أن يكون زواج زيد « المولى » من « زينب بنت جحش » هو الوسيلة العملية للقضاء على تقاليد الجاهلية ..

لكن .. لماذا زينب بالذات :

لأنها : بأصلها .. وخلقها وسمتها كانت فى الذروة .. ومن أجل ذلك .. فإنها إذا تزوجت من كان مولى .. كانت الضربة موجعة .. واختزلت مسافة البعد بين .. السادة .. والعبيد .. ليكونوا تحت راية الإسلام إخوانا ! لقد كانت جميلة .. تدل بجمالها ..

ثم هى سليلة بيت الشرف ..

وفوق هذا : فهى ابنة عمة رسول الله ﷺ ..

ومع هذا .. تقدم لخطبتها زينة شباب قريش ..

فكيف توافق على زواج من كان عبداً .. بالأمس .. وبالذات عبداً فى بيت أهلها؟!

وكان من دلائل انتمائها أنها لم تتعجل بالرفض .. راغبة إلى أخيها الذى وقف إلى جوارها يعتذر عن زواج غير متكافىء .. ويوشك أن يموت لحظة ميلاده .

ولكن حكمة الله تعالى اقتضت أن تتراجع قيم عفنه .. لتحل محلها قيم أصيلة .. على أنقاض أوهام القبيلة .

ورضيت « زينب » الشريفة بالزواج من زيد .. فما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم .

ثم كان ما كان من شقاق بينها وبين زوجها « زيد » انتهى بزواجه ﷺ منها .

ولقد كان « زيد » نفسه هو رسول رسول اللّه ﷺ إلى زوجته السابقة « زينب».. ليخطبها للرسول .

وتأمل ضراوة المعركة فى قلب شاب .. يطلق زوجته .. ثم هو هو الذى يخطبها لغيره ..

ثم تأمل « زينب » المطيعة .. والتى تسارع فى هوى لرسول : فهى تستجيب.... فترضى بالزواج من زيد أوّلا ..

ثم هى تستجيب أيضا .. إذْ دعيت لتكون زوجة للرسول – تأمل هذا .. ثم تبين كيف تكون الزوجة فى ذاتها صالحة .. والزوج أيضاً فى ذاته صالحاً .. ؟ لكنهما لا يأتلفان .. ومطلوب منها التسليم بأن التفريق بينهما لا يسبب العداوة .. وإنما هى الحكمة الإلهية التى تؤكد أنه : إن يتفرقا .. يغن اللّه كلا من سعته ..

وقد أغنى اللّه تعالى زيدا حين زوجه الرسول « أم أيمن » ..

إلى جانب تكليفه بقيادة بعض السرايا .. حكمة يقضى بها ﷺ وسلم على تلك الحساسية التى قد تثير المتاعب بين أزواج الأمس ..الذين قد يديرونها معارك وهمية.. تنعكس ظلالها أو ظلامها على واقعهم وهم لا يشعرون .

ولنترك القائد العسكرى .. « زيداً » فى عشه الجديد .. مع أم أيمن .. لنرى أم المؤمنين « زينب بنت جحش » وقد أحدث انضمامها إلى أمهات المؤمنين دويا وبخاصة لدى زوجته الأثيرة : عائشة – رضى اللّه عنها – .. والتى وجدت فيها جمالاً . ومثالا للزوجة الصالحة .. فكان بينهما من الغيرة ذلك القدر المسموح به بين الضرائر . ولقد زوجها ربها بالوحى الأعلى .. دون ضراتها جميعا ..

لكن ذلك لم يكن ليشغلها عن دورها الأصيل .. كمصلحة اجتماعية .. قبل أن تكون زوجة وفية :

إن أمجاد العائلة .. لم تلغ فيها نزعة الإصلاح :

فقد كانت تعمل بيدها :

تغزل الصوف بنفسها

وتدبغ الجلود .

وتسلك الخرز عقوداً ..

ثم لا تهب من ذلك للفقراء . كصدقة .. قد تجرح الشعور ..

وإنما هى الصداقة التى تحترم كرامة المحاويج :

فقد كانت تبيع ذلك .. بسعر التكلفة لهؤلاء المحاويج !

بل إن راتبها الشهرى البالغ اثنى عشر ألفاً .. كانت تعود به على المساكين .

ولقد أضافت إلى هذه الروح الإنسانية .. نزعة الإنصاف ..

الإنصاف فى معاملة ضراتها .. بل فى معاملة عائشة بالذات عند حديث الإفك فقد شهدت بأن عائشة :

[واللّه ما رأيت منها إلا خيرا]

لقد كانت الزوجة الوفية .. والمرأة العصامية .. وكان من حقها على أمتها أن يكون يوم وفاتها إعلانا عن مكانتها .. لكنها آثرت أن تودع الحياة فى هدوء .

مؤثرة أن ترجع إلى ربها بلا منة من أحد .. ظهر ذلك لحظة احتضارها حين قالت : إنى قد أعددت كفنى . وإن « عمر » سيبعث إلى بكفن فتصدقوا بأحدهما .. وإن استطعتم أن تتصدقوا بإزارى .. فافعلوا] .

* * *

أم المؤمنين : صفية بنت حيى - رضى اللّه عنها -

كانت قصة « صفية » - رضى الله عنها - درساً للمتحمسين من دعاة اليوم والتى تقول لهم :

هونوا على أنفسكم . وجففوا دموعكم الغالية .. والحماس وحده لا يجدى .. لأن صاحب الدعوة سبحانه هو الذى يكيد لها . ويمكر بأعدائها .. وهو خير الماكرين :

لقد كان سبحانه وتعالى ينصر دينه بالرجل الفاجر .. الذى يجعل منه سلاحاً من أسلحة القدر ..

وكان سبحانه ينصر دينه عن طريق هذا الفاجر .. من حيث لا يحتسب الغادرون :

لقد أخذ « عكرمة » من ظهر أبى جهل ..

وأخذ أم كلثوم من ظهر .. عقبة بن أبى معيط .. وهو سبحانه الذى قدر أن يأخذ « صفية » من ظهر أعدى أعدائه .. ليضاف هؤلاء جميعاً لحساب الإسلام .

وبداية القصة هكذا :

كانت « صفية » بنت حيى .. زعيم بنى النضير من اليهود . وكان زوجها قائداً من قواد اليهود ..

وقد قتل الأول فى بنى قريظة .. وقتل الثانى فى خيبر .. وشاء لها قدرها أن تكون واحدة من سبايا خيبر .

ونتصورها الآن تساق إلى المدينة كاسفة البال . متثاقلة الخطى ..

فإذا تصورنا أنها ما زالت فتاة فى السابعة عشرة من عمرها .. تبين لنا إلى أى حد كان قلبها يغلى .. ويكاد يتميز من الغيظ .. حين تتدفع دماء الشباب .. والرغبة فى الانتقام .. ولكن موجة التشفى ترتد خائبة .. فالعين بصيرة .. واليد قصيرة !

وبدأت خيوط حياتها الجديدة تلوح فى الأفق :

فهى جميلة جمالاً أخاذا ..

ثم هى ابنة رئيس القبيلة .. وزوجة القائد .. يرجع نسبها إلى هارون أخى موسى عليه السلام .

وكان ذلك من دواعى تزاحم الراغبين فيها من المقاتلين ..

ولكن الرسول ﷺ يلقى عليها رداءه .. فيحسم الموقف .. لتصير فى النهاية من نصيبه ﷺ .

لكن حجم الأسى على ما جرى لأهلها ما زال بركانا مكبوتاً فى قلبها .. وكانت تعبر عنه بين الحين والآخر :

لحنا فى القول .. أو تجملا فى المواقف ..

فلم تظهر أول الأمر تلهفا على الرسول ﷺ .

وبدا من تجملها أو كبريائها : أنها لما مر بها بلال هى وابنة عم لها على جثث قومها من اليهود .. إستطاعت أن تضبط أعصابها .. بينما انهارت ابنة عمها ..

ويجيئها الدرس الأول فى عتاب الرسول لبلال :

أنُزِعَتْ منك الرحمة يا بلال .. حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما] ؟؟

وتدرك الأسيرة الكسيرة ما جبر خاطرها .. وأراها جوهر الإنسانية التي تملك أمرها اليوم . وأن معارك الإسلام لا يدفع إليها الحقد أو التشفى .. وأنها لا تنجلى عن أشلاء .. وضحايا .. وإنما عن الرحمة المهداة . والنعمة المسداة .

وظهر من حكمته ﷺ بعد رحمته .. أنه لم يفاتحها

أولاً فيما بدا من إبائها .. تطبيقاً لواقعية الإسلام الذىلا ينتزع الغضب انتزاعاً.. وإنما هو العلاج المرحلى .. الممتد الذى تتبخر معه شحنة الحقد رويداً .. رويداً..

وهذا هو الذى حدث بالفعل :

فقد كان لدى الأسيرة دهاء .. وإباء .. وعزوف عن الحياة .. ولكن حكمه الرسول ﷺ تزاملها خطوة ..خطوة .. إلى الحد الذى كان يدافع عنها .. وبحرارة .. كلما صوبت إليها سهام أو ووجهت بملام :

لقد كان وضعها حساساً بين أمهات المؤمنين ..

فإذا كان من وراء ضرة كعائشة – رضى اللّه عنها – : الصديق أبى بكر .

وكان من وراء حفصة : الفاروق عمر ..

فإن أصلها اليهودى مانع لها من إثبات الذات على ما تشتهى ..

وقد تجاوزت هذا المنعطف الخطر بدهائها .. حين استدعت فطرتها القديمة فتحايلت لتثبت وجودها تحت سقف البيت : فتوددت إلى من يرضيه التودد من ضراتها ..

ثم كانت الهدايا ركوبها إلى قلب من ترضى بالذهب رمزا للود .. يستجلبه التهادى.

ومن وراء ذلك كله كان ﷺ . يشد من أزرها فيما يشبه الدفاع عنها والتنويه بها :

حدث أن شكت للرسول ﷺ من عائشة وحفصة فقال لها : [ألا قلت : وكيف تكونان خيراً منى .وزوجى : محمد . وأبى هارون ، وعمى موسى ؟]

ولم تشأ الزوجة الحكيمة أن تمحو هذا السجل الحافل بجلائل الأعمال .. بالاشتراك فى الفتنة الكبرى كما أسهمت فيها عائشة . وآثرت ألا تكون فيها قاعدة.. ولا ساعية

*****

مارية القبطية - رضى اللّه عنها -

قبل الحديث عن « مارية » - رضى اللّه عنها - نسجل أولا كيف تذكرنا بقوة الإسلام.. وإنسانية الإسلام :

أما عن قوة الإسلام :

فقد كانت مارية واحدة من هدايا المقوقس إلى الرسول ﷺ .. والتى عبر بها عن تقديره للإسلام .. واحترامه لرسوله .. واعترافه الضمنى بدولة الإسلام التى تأخذ مكانها تحت الشمس .

أما عن إنسانية الإسلام :

فقد كان من تدبير اللّه تعالى أن يتزوج الرسول مارية القبطية مؤكدا نزعة الإسلام الإنسانية .. وأفقه المتراحب .. والذى يسمح مع اختلاف الدين أن تكون هناك معايشة بين المسلم والنصرانية ..ولا بأس بعد ذلك أن يكون الوالد مسلما وأخوال أولاده نصارى ..

ولقد كان لمارية وأختها « سيرين » كانت لهما بين الهدايا مكان ومكانة .. وذلك واضح من رسالة « المقوقس » إلى الرسول ﷺ . والتى جاء فيها :

[وقد كرمت رسولك . وبعثت إليك بهدية .. وبجاريتين لهما فى القبط قدر ومكانة]

ولقد كانت « مارية » من نصيبه ﷺ .. بينما كانت أختها « سيرين » من نصيب شاعر الرسول : « حسان بن ثابت » - رضى اللّه عنه -.

وكان زواج الرسول منها بداية حياة جديدة رشيدة .. أثبتت فيها أنها فعلاً جديرة بهذا الشرف العظيم ..

وبدا ذلك من إعلانها إسلامها .. وبلا تردد .. ثم أخذت مكانها المرموق فى منازل أزواجه .

لكن عطف الرسول الكريم عليها .. ربما أثار موجة من الغيرة منها .. فكان من حكمته ﷺ أن يضع حداً لهذا القلق .. ينقلها إلى منزلها الجديد « بالعالية » فى ضواحى المدينة .

ولئن فقدت أحياناً تقدير بعض ضراتها .. فإن اللّه تعالى جعل من تقدير الرسول الكريم لها .. خير عوض :

فبسببها أوصى ﷺ بالقبط خيراً فقال :

[استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحما] وهكذا .. ومن أجل عين ألف عين تكرم .. بل يكرم شعب بأسره من أجل مارية – رضى اللّه عنها – .

هذا هو تكريم الرسول ﷺ لها .. فماذا عند الضرائر ؟ : إن للضرائر حسابا آخر..

وقد أفصحن عن غيرتهن على لسان عائشة التى قالت يوما : [ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية : وذلك أنها كانت جميلة .

فأعجب بها رسول اللّه ﷺ . وكان أنزلها أول ما قدم بها . فى بيت لحارثة بن النعمان .. فكانت جارتنا .

فكان عامة الليل والنهار عندها .. فجزعت . فحولها إلى العالية . وكان يختلف إليها هناك .. فكانت ذلك أشد علينا]

وقد كان من الممكن احتمال هذا الإيثار .. لولا أن الأقدار العليا كانت تدبر لمفاجأة .. ما كانت تخطر على بال :

لقد حملت « مارية » .. ووضعت مولودها « إبراهيم » لتعزز بذلك مكانتها بين زوجات الرسول ﷺ .. والذى زاد حبه لها حيث جاءته بريحانة البيت .. بعدما طال الشوق إليه .

وفى ظل هذا المعنى تدرك لطف اللّه تعالى بعبده الذى يقع عليه الظلم .. ثم لا يجد حيلة ولا يهتدى سبيلاً .. لكن اللّه تعالى يجبر خاطره فىالنهاية بنصر من عنده.. فإذا هو ملء السمع وملء البصر .. وإذا حساد الأمس .. يستسلمون لتصاريف القدر .. الذى قد يمهل لكنه أبدا .. لا يهمل .

وقصة « مارية » شاهدة بذلك : ففى مستهل حياتها تظاهر عليها أمهات المؤمنين .. ولكن اللّه تعالى يؤيدها من فوق سبع سموات :

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ..﴾ [التحريم: ١]

ورضى اللّه عن « مارية » القبطية :

لقد كان إحساسها بالغربة قوياً .. مما فرض عليها أن تتغالى فى مرضاته ﷺ.. وفى التحلى بالصبر الجميل فى تعاملها مع الآخر ..

وكان ذلك رصيداً مدخراً لها .. بعد ما رحل عنها حاميها وراعيها رسول اللهﷺ : فلقد ردت الأمة لها الجميل :

أولا : تعظيما لزوجة الرسول ﷺ .

ثم تقديرا لها .. وشفقة عليها فى وحدتها :

كان أبو بكر ، وعمر .. ينفقان عليها .

ويقال : إن « الحسن بن على » - رضى الله عنه - جعل من شروط صلحة مع معاوية - رضى الله عنه - أن يرفع الخراج عن أهل قريتها فى صعيد مصر..

وبنى « عبادة بن الصامت » على أنقاض بيتها مسجداً .

وهكذا .. كان الوفاء جزاء الأوفياء .

* * *

أم المؤمنين : ميمونة بنت الحارث - رضى الله عنها -

كانت « برة » بنت الحارث من سادات النساء .. بما ملكت من عقل وحسن تدبير .

تغذى هذه السيادة روافد أخرى جعلت منها أنموذجا بين النساء عز نظيره :

فهى على مستوى الأسرة :

كانت لها أخوات .. كان لهن دور مشهود فى تأديب الطغاة من أمثال أبى لهب.

وعلى مستوى العائلة .

فهى خالة ابن عباس - رضى الله عنه - .. حبر هذه الأمة .. كما كانت خالة خالد بن الوليد - رضى الله عنه - .. سيف الله المسلول .

أما قصة حياتها : فقد لا تجد فيها من الأعمال الضخام ما يستلفت النظر ..

ولكننا نخطئ أحياناً .. حين تركز على الأحداث الضخمة .. ثم ننسى التفصيلات الدقيقه.

ذلك بأننا عندئذ نرى فقط .. بـالبصر .. ولا نتـأمل بـالبصيرة .. البصـيرة التـى من شأنها : التعمقُ .. لربط الأسباب بالمسبَّبات والأحداث الظاهرة بعللها الدفينة .

وفى تأملنا لحياة أم المؤمنين «ميمونـة» – رضـى اللّـه عنهـا – .. نطـالع قصـة اللحظات الأولى .. عندما تمت خطبتها :

فقد أبدت هى رغبتها فى الزواج منه ﷺ .. وهى دون الثلاثين من عمرها ..

إن عهدنا بالشابات أن تتجه منهـن الرغبـةُ .. إلـى الشـباب .. وأحيانـاً .. ينسـى الشـيخ فـارق السـنّ .. فيـتزوج مـن هـى فـى عمـر ابنتـه .. أو حفيدتـه .. ثـم تكـون النتيجة: أن يكتشف كلا الطرفين أنه يصـاحب مـن لا يوافقـه .. ولا يفارقـه . ثـم إذا بالنار تندلع .. بينما الماء ينقطع .. وإذا هما فى العذاب مشتركون .

لكن «ميمونة» – رضى الله عنها – .. تختزل فارق السن .. فلـم تكـن مدفوعـة بالهوى .. ولم تكن تستهويها بروق المطامع ..

وإنما كانت تستهدف من وراء هذا الزواج أن تحقق لنفسها نعمتين :

الأولى هى : نعمة الإسلام .

والثانية : تمام النعمة بالزواج من الرسول ..

إذن .. فلم تكن المبادرة منها عبثاً .. وإنما كان الفرار مدروسـاً .. ألا وإننـا لا نستطيع أن نتحكم فى حياتنا طولاً .. فذلك إلى اللّه عزّ وجلّ .

وإنما نستطيع أن نتحكم فيها : عمقاً .. وإتساعاً .. بالتصرف الحكيم .

وكذلك كانت أمُّ المؤمنين ميمونة .. رضى الله عنها . ولكنها .. وإن بلغت فـى الحكمة ذروتها .. لم تكن قادرة على إخفاء سرورها لما بلغتها موافقة الرسول ﷺ : فقد كانت عندئذ راكبة بعيراً لها .. فقالت : الجمل .. وما عليه .. لرسول اللـه ﷺ ! ولم يكن هذا الموقف النبيل ليمرَّ دون تقدير .. ولقد جاء التقديـر عظيمـاً : فقد نـزل فيها ساعة تذ قولُه تعالى :

﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب : ٥٠] .

وكفى به تكريماً .. استنزلته امرأة مؤمنة .. انتصرت فى كيانها إرادة الإيمان.. حين اختارت أن تعيش فى كنفه ﷺ .. وكان بإمكانها أن تعيش فى بحبوحة من النعيم مع واحد من طلاب الدنيا .

وقد مضى بها قطار العمر وهى مثال الزوجة الوفية المثاليه .. والعابدة الزاهدة الراشدة .

بعد وفاته ﷺ . آثرت أن تحج كل عام وهى وإن كانت قليلة الرواية عنه ﷺ لقلة مكثها معه .. إلا أن وفاءها لم يكن قليلاً .. وإنما كان جزيلاً : وفى الشدائد .. ظهر ذلك الوفاء يفرض نفسه فرضاً : ففى مرض موته ﷺ . كان فى بيتها . ولما طلب منها أن ينتقل إلى بيت عائشة رضيت بالعرض على ما كان لديها من رغبة فى أن تستأثر بتمريضه.

وهكذا كانت وقوراً .. هادئه .. وديعه .. كما كانت فى حياته ﷺ كذلك : حيث لم يقل أحد بأنها أثارت مشكلة . أو أدارت معركة ..

الأمر الذى حدا بعائشة – رضى اللَّه عنها – أن تشهد لها شهادة جامعة .. يوم وفاتها فقالت:

[ذهبت واللَّه ميمونةً : أمَا إنها كانت من أَتْقَانَا للَّه .. وأوصلنا للرحم] .

ورضى اللَّه عمن كانت حياتها : تعظيماً للخالق .. وشفقةً على المخلوق.

* * *

أم المؤمنين جويرية بنت الحارث – رضى اللَّه عنها –

بعد انتصار المسلمين فى غزوة بنى المصطلق .. عادوا إلى المدينة بالغنائم .. والأسارى والسبايا ..

وكان فى طليعة السبايا «جويرية» بنتُ سيد بنى المصطلق «الحارث بن أبى ضرار» .. والتى خلَّفت من ورائها زوجها الشاب .. الذى قتل فى هذه الغزوة .

وعلى حداثة سنها . ومرارة الفاجعة فى قلبها .. لكنها كانت تسبق عمرها : فكان لها عقل يفكر .. ولسان معبر .. يغترف من قلب عامر بالخلق الكريم .. إلى جانب اعتزازها بنسبها .. ومحاولتها الاحتفاظ بسمتها الوقور .. كلما تصورت واقعها الأليم .

وإذا كانت الأحداث العظام .. تميز بين .. المعادن الأصيلة .. والدخيلة .. فقد كشفت المحنة عن شخصية عصية على الكسر بقدر ما تملك فى نفس الوقت من الحكمة ما تتجاوز به عقبات الطريق ..

وقد بدأت الأحداث المتلاحقة تكشف فعلاً عن أصالتها ورزانتها : كانت من نصيب الصحابى الجليل «ثابت بن قيس» - رضى اللّه عنه - والذى كاتبها على قدر من المال .. عليها أن تعود به إليها ثمناً لحريتها .. وهداها عقلها إلى أن تذهب إلى رسول اللّه ﷺ . تشكو إليه ما تلاقى ..

وإذا كان اختيارها للرسول الكريم بالذات دليل حكمتها .. فقد كان منطقها فى عرض قضيتها شاهد صدق على أن اللّه تعالى رزقها نعمة التوفيق .. وأن مستقبلاً كريماً يناديها .. كفاء ما تملك من مواهب : قالت : يا رسول اللّه :

إنى امرأة مسلمة .. أشهد أن لا إله إلا اللّه وأنك رسول اللّه أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه . وكان من أمرى ما لا يخفى عليك .. وقد أصابنى من البلاء ما لا يخفى عليك .. ووقعت فى سهم .. ثابت بن قيس .. فكاتبنى على ما لا طاقة لى به.. ولا يدان لى .. ولا قدرة عليه : وهو تسع أوَاقٍ من الذهب .

وما أكرهنى على ذلك : إلا أنى رجوتك صلى اللّه عليك وجئتك أسألك فى كتابتى]

فقال لها ﷺ : أؤدى عنك كتابتك .. وأتزوجك ؟ .. فقالت على الفور :

نعم يا رسول اللّه .. قد فعلت !!

ولاحظ من بلاغتها : الإيجاز فى عرض الشكوى .. وفوق ذلك لاحظ من توفيقها أنها اتخذت القرار الخطير طواعية واختياراً ..

ولا شك أن مجد الآباء .. والحنين إلى الوطن .. والقصر المنيف والطعام الشهى .. والشراب الهنى .. كل أولئك كان يناوشها من بعيد .. وتوشك مقاومتها أن تضعف رغبة فى عودتها إلى وطنها ومناعمها .. ولكن عزة الإيمان استعلت على ذلك كله .. واختارته ﷺ .. وتأملها وهى تحت سن العشرين .. لا تقول : قبلت.. ولكنها تقول : قد فعلت !! .. كاشفة بهذا التعبير عنه أن موافقتها تمت كمالاً.. وهى ملك يديه من الآن !

لقد أخرجت من قلبها كنوزاً كانت مطمورة هناك فى الأعماق : إنها وازنت .. فاختارت :

١- أن تعود حرة .. ويملكها اللّه تعالى وحده .

٢- وأن تكون زوجاً لأعظم البشر .

٣- ثم لتكون أمًّا للمؤمنين .. ومن هؤلاء المؤمنين : ثابت بن قيس نفسُه !!

تفعل هذا .. وقد كانت تملك من المواصفات .. ما به تملك الدنيا .. لا سيما وهى فى سن الفتوة الراغبة فى النعيم .. فقد كانت كما وصفتها «عائشة – رضى اللّه عنها – :

[كانت امرأة حلوة مُلاَّحة : لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه] وهكذا .. تضم إلى كمال خُلقها .. جمال خَلْقِها . ولكنها فضلت ألا تأخذ بنفْسِ أحد .. وقررت ألا يكون لها إلا نفس واحدة .. وهبتها منذ إسلامها للّه تعالى .. وحبًّا فى رسوله ﷺ .

إنها المؤمنة التى لم تعش لنفسها .. وإنما عاشت للآخرين .. فكان العطاء وكان الفداء مفتاح شخصيتها..

ومن عطائها وبركاتها :

١- أن قومها أسلموا جميعاً بإسلامها .

٢- حتى أبوها الذى جاء يفديها .. ليعود بها إلى بلاده .. ولكنها اختارت الرائد الذى لا يكذب أهله .. لقد سرقت أباها .. قبل أن يسرقها .. حين أصابته منها بركة.. فأعلن إسلامه .. مؤكداً كيف تستطيع المرأة فى لحظات ضعفها أن تعطى أقوى ما تقوم عليه الحياة .

* * * *

زينب : بنت رسول الله ﷺ

كانت « زينب » – رضى الله عنها – كبرى بنات رسول الله ﷺ .. من أجل ذلك .. فازت بحب الوالدين كله .. من حيث كانت باكورتهما .. وريحانة قلبيهما . وهكذا شأن الولد الأول .. والذى يستأثر بشحنة الحب وحده .. قبل أن يلحق به إخوته من بعده .. ليقسم الحب عندئذ .. على الإخوة جميعاً .

ولشد ما سعدت مكة بمولد أول أنثى تستقبل بالترحاب .. بعدما كانت تدس فى التراب .. وكان المتوقع أن تعيش طفولتها فى دلال . وهدوء بال ..

ولكن إرادة الله تعالى شاءت أن تكون « زينب » – رضى الله عنها – : امرأة: بلا طفولة !

فقد كانت حياتها من ألفها إلى ياءها – ملحمة رائعة الفصول .. كشفت .. عن معدنها الأصيل : بنتاً .. وزوجة .. وأما ..

لقد شغلت أمها – رضى الله عنها – بالرسول ﷺ فى بواكير الدعوة الأولى .. وكان لابد لزينب أن تشمر عن ذراع لتتحمل مسئولية إدارة البيت .. على نحو بدت فيه مواهبها تتجلى فى خضم المعارك اليومية مع المعاندين من قريش .. وفرض على ربة البيت الصغيرة أن تستقبل أنباء حصار أبيها وأمها فى الشعب .. ثلاث سنين .. وبقلب جسور..

وقد تعاملت مع هذه الظروف الصعبة بما عهد عندها من صبر .. وأناة .. وتبصر.. فنجحت فى الإمتحان العملى ..

وما أكثر اللائى يتغنين اليوم بالمبادىء أملا .. لا عملاً ..

ولكن زينب – رضى الله عنها –. أثبتت أن دعوى المبادىء لا تفيد .. ما لم نكن صورة لها . [وما تنفع الخيل الكرام .. ولا القنا .. إذا لم يكن فوق الكرام .. كريم] ولقد كانت زينب – رضى الله عنها – ذلك الكريم الذى ملك ناصية المكارم.. عملاً لا أملا.. وحقيقة.. لا إدعاء .

وكانت قصة زواجها من ابن خالتها .. « أبى العاص » معرضا تجلت فيه المكارم .. التى كانت رسالة .. لا سياسة .

تزوجت ابن خالتها « أبو العاص بن الربيع » وكان زواجا موفقا .. فلما ظهر الإسلام .. كان طبيعيا أن تعلن إسلامها .. أما هو : فأبى .. وربما حاول منعها .. فتأبت عليه ..

لكن حقه فى الوفاء كزوج .. ظل على العهد القديم .

وبدا الشرخ فى علاقتهما واضحا . بانضمامه إلى جزب الشيطان فى غزوة بدر.

وشاء الله أن يقع أسيراً .. وأن تفديه زينب بقلادة كانت أمها قد أهدتها إليها ليلة عرسها ..

وكان فداؤه بهذه القلادة بالذات .. تضحية تؤكد أن حجم الوفاء كما هو .. وأن الحب المتبادل يتجاوز المحن .. وقد تزيده رسوخا.

ولما عاد إلى مكة .. فرق الإسلام بينهما .. فودعها آسفا .. ولكن قريشاً تضيف إلى ألم الفراق عدوانها على زينب . وكانت حاملا .. فنزفت دما .. وأجهضت .

ومن تدبير الله تعالى أن يخرج فى تجارة .. ثم يضطره قطاع الطريق إلى الفرار .. فاستجار بزينب رفيقة الأمس .. فأجارته ثم عاد إلى مكة يحمل منّة «زينب» .. ويؤرقه جميل المسلمين الذين وقفوا إلى جانبه فى محنته .. فأعادوا إليه ما سلب منه ..

وإذا به عندئذ .. على موعد مع الإسلام .. فنادى فى قومه لما رجع إليهم ..

ثم .. وبعد فراق ست سنوات عجاف .. التأم شمله مرة أخرى مع زوجته الوفية « زينب »- رضى اللّه عنها -.

وتأمل كيف يختلف الدين .. وتتراكم الأحداث .. وتتقلب الأيام .. ولكن الزوجة الوفية على الود القديم ..

وإذا وهبت العقيدة عقلها وقلبها .. فإن ذلك لا يمنع أن يكون فى النفس متسع لبذرة الوفاء .. التى قد يغطيها النسيان يوما ..

إنها قد تختفى .. لكنها أبداً لا تموت .

وكيف تموت فى قلب زوجة « كزينب »- رضى اللّه عنها - ؟. والتى تلقت قيمة الوفاء.. لا دروساً فى قاعات البحث .. وإنما ارتشفت الوفاء كئوسا .. من أبيها الذى كان يصنع الوفاء إداما ولا يمضغه كلاما !

ثم من أمها التى نشأت فى مطارف النعيم .. ثم دفعت ثمن الوفاء غالباً حين رضيت بالورق الجاف طعاما فى الحصار - حتى تقرح شدقاها .

ولقد كان طبعيا أن تفوز من حب أبيها بالنصيب الأوفى :

أولاً : لأنها أنثى .. فهى أولى بالعطف .

وثانياً : فهى ابنة الزوجة الوفية العزيزة ..

وثالثاً : لما لاقت فى حياتها من عناء وأسى

ومن ثم كانت وفاتها فاجعة .. فقد ذكرته بوفاة أمها .. فأيقظت من ذكريات الأمس ما كان منسياً .. ثم قال لمن حولها من النسوة :

اغسلنها ثلاثاً . واجعلن فى الآخرة كافوراً .. ثم كان أخر عهده بها أن صلى عليها .. ثم عاد إلى ولديها : أمامة و « على » يجدد برؤيتهما ذكرى العزيزة الراحلة .

* * *

فاطمة الزهراء - رضى اللّه عنها -

سأل علىّ - كرم اللّه وجهه - رسول اللّه ﷺ :

أيهما أحب إليك .. على أم فاطمة ؟

فقال ﷺ :

أنت أعز علىّ منها .. وهى أحب إلى منك

إن رجوله علىّ أليَق بها الاعتزاز ..

الاعتزاز بمن يستر العرض . ويحمى الشرف ..

أما الحب : فهو ذلك الرباط الوجدانى .. تزكيه غزيزة الأبوة التى ترى فاطمة « كَبِده » تمشى على الأرض ..

وكيف لا ؟ وهى :

أولاً : صغرى البنات .. والبنات حبات القلب .

وثانيا . لما كان يلوح عليها منذ ولادتها من جلال .

وثالثا . هى ابنة .. «خديجة» وهى أعز زوجاته جميعا .

ولقد حظيت شخصيتها بمزيد من تعليقات الكاتبين الذين حاولوا وصفها .. فقارَبُوا .. ولمْ يَصلوا ..

ومن ذلك قول أحدهم :

(حياة فاطمة – رضى اللّه عنها – صفحة فذة من صفحات التاريخ :

نلمس فيها لوناْ جديدا من ألوان العظمة :

فهى ليست ملكة تستمد عظمتها من عرش أو ثروة أو جمال .

ولكنها شخصية استطاعت أن تخرج إلى العالم وحولها هالة من حكمة وجلال .

حكمة : ليس مرجعَها الكتبُ والفلاسفةُ والعلماء .

وإنما تجارب الدهر الملىء بالتقلبات والمفاجآت .

وجلال : ليس مستمداً من مُلك أو ثراء .. وإنما هو نابع من صميم النفس] .

وقد أكدَ ذلك تاريخها طفلة .. ثم شابة .. ثم زوجة .. هذه المراحل التى خاضتها .. على جسر من التعب .. الذى صقل شخصيتها .. فخرجت من بَوْتقة الأحداث ذهبا خالصا .. حتى صارت تُكْنى « بأم أبيها »

وهذه الأمومة المبكرة .. صنعتها العقبات التى صادفتها . فلم تستسلم لها .. ولكنها اعتلتها .. ثم تجاوزتها .. حاملة من التجارب ما أضاف إلى عمرها أعمارا .

أما عن طفولتها : فقد ماتت امها .. لكن أختها زينب كانت أمها البديلة .. والتى خففت من أشجانها .. لكن الحزن النبيل على أمها كان يناوشها ..

ولقد وقفت فى مستهل شبابها مع الرسول ﷺ تحمل معه عبء الدعوة . إلى الحد الذى تصدّت فيه لعدو اللّه « عُقبة » والذى اعتدى على أبيها .. فألقت به بعيدا.. والناس ينظرون ويتعجبون من بطولة الزهراء– رضى اللّه عنها –.

ولقد تحملت مسئولية الأسرة وسنها : خمس عشرة سنة :

تقدم لخطبتها أبو بكر ثم عمر – رضى اللّه عنهما –.. لكن الرسول الكريم يختار عليا – رضى اللّه عنه – والذى قال له يوما :

(يا على : أما آن لك أن تتزوج) فقال : ومن أين يا رسول اللّه ؟

فقاله له : ألا تملك شيئا ؟ فقال عليّ :

(لم يترك لى أبى شيئا ولا أملك إلا سيفى ودرعى)

فقال النبى ﷺ :

(أما السيف فلا غنى لك عنه . وأما الدرع فيمكن الاستغناء عنها ويدافع اللّه عنك).

وإذا كان أقل النساء مهورا .. أكثر لهن بركة .. فقد كان زواج الزهراء مصداق هذه القاعدة الذهبيه ..

ومن بركتها ما تحلّت به من حكمة جعلت من الدار جنة ذات قرار ومعين :

حدث أن أحست بما ضايقها من زوجها « علّى » - رضى اللّه عنه - ..

فلم تسرع إلى بيت أبيها .. وبقيت إلى جانبه تغالب قلبها ..

فقد ينجلى الموقف عن الصلح .. بدل أن تتفاقم المشكلة لودخل الأب طرفا فى القضية [كما يحدث اليوم] .

لكن الوالد .. يسرع إليهما .. ثم يصلح بينهما .. معلنا سروره بعودة المياه إلى مجاريها بقوله للصحابة الذين رأوه مستبشرا :

(وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين إلى ؟ !)

ولا تتخلى عن حكمتها حتى لو ضاق صدرها .. وعادت إلى بيت أبيها شاكية:

فقد تقول له .

واللّه لأشكونك إلى رسول اللّه ﷺ .

ولاحظ انها لا تقول :لأشكونّك إلى أبى .. حتى لا تصير القضية حزبا .. يواجه حزبا ..

ولكنها « الرسالة الهادية » هى الحكم !

وكان من آثار هذا المنطق البسيط البليغ .. أن سعى « علىّ » من ورائها ..

فسمع الرسول ﷺ يوصيها باحتمال علىّ .. فكان وقوف الأب مع الزوج محرضا علياً أن يقول :

(واللّه لا آتى شيئا تكرهينه أبدا)

لقد تحدرت إليها أصول العظمة من أبيها .. ومن أمها .. فلم يكن غريبا أن تكون عظيمة .. والشيء من معدنه لا يُستغرب .

رقية - رضى اللّه عنها -

كانت الأميرات فى البلاط الفارسى والرومى .. يرفُلن فى حلل النعيم .. مزهوات بما يملكن من حلىٍّ وثياب ..

وفى نفس الوقت .. كانت المرأة المسلمة فى شخص « رقية » - بنت رسول اللّه.. راغبة فى « الثواب » بدل « الثياب » مزهوة بما تملك من قيم التضحية .. والكفاح.. والصلاح .

ولقد كان لها من قيمة التضحية والكفاح زادٌ واكب حياتها المباركة : وإذا كان ولا بد للبذرة من تربة .. وهواءٍ .. وضياء .. حتى تزدهر من بعد وتزكو .. فقد نعمت « رقية » - رضى اللّه عنها- بشىء من الدلال فى صباها حتى تتحمل مسلسل المتاعب التى سوف تلقاها فى قابل عمرها :

فقد كان وجود أمها « خديجه » رضى اللّه عنها .. وأختها الكبرى « زينب » - رضى اللّه عنها - .. كان حماية لها من هموم البيت .. وهموم الحياة ..

فلما تزوجت زينب .. بدأت تحس بواجبها فى خدمة البيت .. ومضت طفولتها مبكرة .. لتسلمها إلى هموم ثقال .. ينوء بجملها الأشداء من الرجال :

وقد افتتحت هذه الهموم بزواجها من ابن أبى لهب .. عدو اللّه .. ولتكون «حماتها » حمالة الحطب .. التى كانت تؤذى أباها رسول اللّه .

وتأمل حكمة الأقدار :

إن الفتاة هنا تستقبل فارس الأحلام .. بشىء من الفرح الممزوج بالقلق . وفى ليلة يجمع فيها الزمان ليكونها .. تحتار العروس هنا بين عقلها .. وقلبها :

لكنها فى النهاية تسلم زمامها إلى القدر الأعلى .. الذى يخط مصاير الأمور .

وكان من تدبير هذا القدر الحكيم أن تدور رحى الزمان على هذا الكيان الضعيف .

فقد تآمرت قريش تآمرا انتهى بتطليقها من ابن أبى لهب ..

وكان المتوقع أن تتنفس الصعداء على مافى هذا الطلاق من مرارة تجرح كرامة الحرة ..

ولكن : يرضى القتيل .. وليس القاتل :

إن أبا لهب لم يكتف بمؤامرة الطلاق .. حتى أضاف إليها تصعيد معركة إيذاء والدها ﷺ ..

ولو كان هما واحدا .. لا حتملته

ولكنه هم .. وثان .. وثالث .

ولكنها « رقية » بخصائصها الذاتية »

ثم بما تحدر إليها من قيم أبيها .. كانت بحرا لا تعكره الدلاء . وتأمل من مشاهد حياتنا :

تأمل كتلة الفحم .. تتحول إلى فص من الماس بسبب ما تلاقى من الضغط العالى ..

وكذلك الإنسان إذا أحاط به ريب الزمان :

إن الأحداث الكبار التى تضىء بياض شعرنا .. هى نفسها التى تضىء سواد حياتنا ..

الأ قدار العليا .. وإن جعلت البلاء قدر الأبرار .. لكنها لن تجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا ..

وإذا كانت عصبة الكفر قد جعلت من أبى لهب رأس حربة تطعن بها بيت النبوة .. فإن اللّه سبحانه وتعالى يجعل من سنته تعويض المؤمنين .. على مانالوا من أذى الجاحدين .

وكان هذا العرض أن تتزوج : الأغنى .. والأثقل فى ميزان الرجولة من آلاف الرجال .. إنه :

عثمان – رضى الله عنه –.. ذو الهجرتين .. وذو النورين

وقد تكلمل الزوجان هنا :

عثمان– رضى اللّه عنه –.. بماله .. وكما له ..

ورقية .. بجمالها .. ومنظومة أخلاقها ..

وكما يتكامل عنصرا الماء .. ليكون عذبا فراتا فقد امتزج الكمال البشرى .. ليكون مثلا فى دينا الناس الذين كانوا يتغنون به منشدين :

أحسن شخصين رأى إنسان : رقية وبعلها عثمان

وقد أثبتت الأحداث من بعد صدق هذا الشعار :

فقد فرض عليها أن تجرب الاغتراب ومفارقة الأحباب :

هاجرت مع زوجها إلى الحبشة .. عبر طريق موحش لا يصبر عليه إلا أولو العزم .

فلما عادت إلى مكة راغبة فى العيش فى ظل أبيها وأمها خديجة - رضى اللّه عنها- .. كانت المفاجأه : إن أمها قد رحلت عن الدنيا ..

وكان عليها أن تدفن أشواقها .. وترتب حياتها على معاناة بقية حلقات سلسلة الآلام ..

لقد مات وليدها « عبد اللّه » فى حجرها .. فلم تتم فرحتها به ثم هاجرت مع زوجها مرة أخرى إلى المدينة ..

وشاء القدر أن يختم هذه القصة بهذا المشهد الفاجع :

رقية .. تلفظ أنفاس الحياة .. بينما أختها زينب تتكب عليها باكية ..

ويقف الوالد العظيم أمام مشهد يحس ولا يوصف وكان عليه أن يبلغ فى الصبر درجة الاصطبار : حين تقدم هو ليصلى عليها ويدفنها بيده .. وياالصعوبة الامتحان.. عندما يفرض علينا أن نودع أعزاءنا التراب.. بلا أمل فى لقاء وعزاؤنا أننا ندفنهم قبل التراب فى قلوبنا .. فلا يموتون.. إلا عندما نموت .

* * * *

أم كلثوم « بنت رسول اللّه ﷺ ورضى اللّه عنها »

يقولون :

[إن جمال كل شىء وبهاءه هو : أن يكون على ما يجب له]

وقد كانت « أم كلثوم » – رضى اللّه عنها –على أوفى ما يكون الجمال . حين وضعتها الأقدار فى مكانها اللائق .. غصنا باسقا فى شجرة آل البيت الكرام .

ولن يثمر هذا الغصن ثمرته إلا إذا مر بمراحل تؤهله فى النهاية للإثمار ..

وقد مرت « أم كلثوم » – رضى اللّه عنها – بمراحل صقلت شخصيتها صقلا خرجت به من بوتقة الاختبار ذهبا خالصا :

لم تنل فى طفولتها حظا من الدلال المقسوم لمن فى مثل سنها .. بل إنها .. فى الوقت الذى تنعم فيه بنات الآخرين بما لذ وطاب من أفانين الطعام والشراب .. كانت تأكل الورق الجاف فى الشعب مع أمها خديجة – رضى اللّه عنها – ..

وهكذا تشارك الصبية الأمَّ فى تحمل نصيبها من التضحية :

التضحية : لا بالحرمان من الثوب الجديد .. ولكن بالحرمان حتى من لقمة الخبز .. ضمن مجموعة جاعت .. حتى أكلت روث البعير !

ولما جاء الفرج وخرجت من الشعب .. لم تتم فرحتها .. فقد ماتت أمها .. ولحقت بها رقية – رضى اللّه عنها – ..

وبعد أن ذاقت حلاوة الانتصار فى غزوة بدر الكبرى .. كان عليها أن تستعد لمواصلة رحلة الكفاح .

لقد توقعت أن الأيام تخبئ لها ما ينسيها مرارة العذاب مع زوجها « عتيبة بن إلى لهب ».. وأمه « أم جميل » حمالة الحطب ..

إلا أنها كانت على موعد مع الشدائد .. التى فرضت عليها الصمود فى عدة جبهات على مدى عمرها : ولا حظ من شواهد ذلك ما يلى :

كانت فى المدينة .. بينما تركت قلبها هناك بمكة مع أختها « زينب » – رضى اللّه عنها– تعانى مع زوجها أبى العاص بن الربيع . حتى إنها لم تجد قلباً تودع به أختها رقية التى هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عثمان– رضى اللّه عنه– .

بالإضافة إلى رعايتها لأختها الصغيرة « فاطمة » –رضى اللّه عنها –.

ولو أن هذا البلاء صُبَّ على أشداء الرجال .. لكانوا على ما يقول الشاعر :

صبت على مصائب : لوأنها

صبت على الأيام .. صرن لياليا

ولكنها « أم كلثوم » بنت محمد ﷺ ..

ومحمد « كان نوراً » .

(قد جاءكم من اللّه نور]

ومن أجل ذلك كانت شعاعا من هذا النور . ترى فى ضوئه ما لا يراه غيرها من فرج قريب

وقد جاء هذا الفرج القريب عندما تقدم عثمان- رضى اللّه عنه - لخطبتها :

ولقد كان هذا الزواج نفسه امتحانا صعبا لأم كلثوم - رضى اللّه عنها - فقد تقبل الفتاة أن تكون الزوجة الثانية مكان الزوجة الأولى . ولكن . إذا ما كانت تخلف أختها فى عرشها فذلك أمر يحتاج إلى إرادة قوية تصد بها أشباح الماضى .. حين تطاردها صور أختها .. وما تفجره فى خيالها من ذكريات تثير الأشجان .

ولكنها قبلت الزواج راضية .. مؤمنة صادقة الإيمان بأننا نخسر معركة الحياة لو أننا واجهناها بقوانا المحدودة ..

ولكن هناك قوة عليا تصرف الأمور .. ونحن بحكتمها راضون : نطيع اللّه تعالى فيما أمر .. ويحقق آمالنا .. كما وعد سبحانه .

ولقد شاءت الأقدار العليا للمكدود أن يحط متاعه .. ويرتاح بعد هذه الرحلة الطويله..

وكانت « أم كلثوم » ذلك المسافر المعنًى .. والذى قطع الفيافى والصحارى .. وفى الطويق وجد شجرة ظليله فاسترخى استرخاءة وادعة .

وكأنما أراد سبحانه وتعالى أن تكون- رضى اللّه عنها - تلخيصا لرحلة الإسلام :

فلقد عاشت محنة الإسلام الأولى صابرة محتسبة ..

ثم ها هى ذى تعيش ست سنوات من الإنتصار ..

ومن سخرية الأقدار أن الإسلام لا يعلن فقط عن نفسه من خلال رجل مفروض فيه أنه أكثر احتمالا ..

وإنما يعلن عن نفسه من خلال امرأة مؤكدا أن النساء شقائق الرجال .. وأنهما معا يسيران فى موكب آسر .. يعمران الحياة معا .

أما بعد

فقد كانت « أبواق الدعاية » القرشية تعرض بمحمد ﷺ معلنه :

أن محمدا لا يلد إلا البنات : - وتجىء أم كثوم شهادة للبنات : أحب البنات .. وحب البنات فرض على كل نفس كريمة فإن « شعيبا » من أجل ابنتيه .. أخدمه اللّه موسى كليمه .

أسماء بنت أبى بكر – رضى اللّه عنها–

أصدق ما يقال فى « أسماء » – رضى اللّه عنها– : إنها صاحبة النفس الكبيرة.

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وقد تعبت فعلا على مدى رحلة العمر التى بلغت قرنا من الزمان ..

ولأنها صاحبة مبدأ .. فقد ظلت وفية له .. ثابتة عليه ..

وعهدنا بعنصر الثبات أن يكون من نصيب الرجال من حيث أن المرأة عاطفية سريعة التحول ..

ولكن أسماء – رضى اللّه عنها– أثبتت بما تحملت أن المرأة قادرة بإيمانها أن تكون مع الرجل فى خندق واحد .. يواجهان معا أحداث الحياة .. فتستسلم لهما الحياة .

وقد أثبتت الوقائع أنها كانت متعددة المواهب .. و إذا كان شأن الإنسان أن يتفوق فى جانب على حساب جانب آخر .. فقد كانت أسماء– رضى اللّه عنها– متألقة على كل المستويات :

بنتا .. وزوجة .. ومجاهدة .. وأما :

أما فى مستهل حياتها :

فقد كان لها فى إنجاح الهجرة دور مرموق .. حين كانت تحمل الطعام إلى الرسول ﷺ وأبيها أبى بكر – رضى اللّه عنه– .. على الرغم من بعد الشقة . ووعورة الطريق..

ولقد دفعت الثمن غالياً .. حين أراد أبو جهل أن تخبره بالسر ..

فلطمها لطمة طارلها قرطها .. لكنها ثبتت – فى تحد وإباء – ولم تخبره بشىء.

ثم ردت إليه اللطمة تحديا له .. حين واجهت البنت .. فرعون هذه الأمة قائلة له :

[واللّه لو كان رسول اللّه تحت ثوبى هذا . ما كشفت لك عنه .. اغرب عن وجهى]

ولقد كانت الزوجة الوفية : تحملت مع زوجها الزبير بأساء الحياة وضراءها.. وإقبالها وإدبارها : فما أذلها الفقر .. ولا أبطرها الغنى ..

كانت تمشى فى عمق الصحراء باحثة عن النوى .. ثم تدقه .. لتعلف به الفرس..

وهكذا المرأة الوفية التى لا تكتفى بخدمة زوجها .. بل إنها تتفانى فى خدمة دابته فكيف يكون حالها مع أولاده من أخرى .. أو مع رحمه الآخرين : من أمه وأبيه .. وأخيه ؟ ! .

ويمرّ عليها ﷺ فى نفر من أصحابه .. فيعرض عليها أن تركب معه .. فلما همت بالركوب تذكرت غيره زوجها .

فتراجعت ..

وتأمل عمق تقدير الزوج مع أن الموقف لا دور فيه للشيطان :

فهى بنت أبى بكر الصديق ..

وأخت زوجة الرسول ﷺ

وزوجة ابن عمته

ومع ذلك تحترم مشاعر زوجها .. وكان موقفها هذا رسالة موجهة إلى كل زوجة تريد لحياتها أن تصفو .. فلا تحكم العقل فى المواقف العاطفية التى ترفض التفلسف .. والمطلوب هو : فعل ما يريح أعصاب الصاحب بالجنب ..

وأما عن جهادها :

فقد كان لها فى « اليرموك » صولات وجولات .. يشهد بها التاريخ الموثق ..

ولا يقل موقفها من الحجاج .. عن موقفها فى اليرموك .. هذا الموقف الشاهد بحكمتها مع شجاعتها :

ذهبت إلى مكة فوجدت ابنها .. عبد اللّه مصلوباً ..

وكانت عجوزا .. مكفوفة البصر ..

لكن العجز لم ينقص شجاعتها ..

وفقد البصر .. لم يحرمها البصيرة الكاشفة ..

وذلك حين قالت للحجاج فى نبرة عالية :

أما آن لهذا الفارس أن يترجل ؟!

فلما قال لها الحجاج : المنافق تقصدين ؟!

فقالت :

لا والله ما كان منافقا .. وقد كان صواما قواما . وقال لها الحجاج :

اذهبى .. فإنك عجوز قد خرفت .. فقالت : والله ما خرفت : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

[يخرج من ثقيف : كذاب . ومبير [فاسد] فأما الكذاب فقد رأيناه . وأما المبير : فأنت هو] .

وتلك هى الشجاعة التى بثتها فى ولدها عبد الله .. حتى لا يكون لعبة فى يد غلمان بنى أمية ..

ومات على ما عودته أمه شهيدا ..

ولكن هذا القلب الجسور خلف ضلوع أسماء- رضى الله عنها -.. كان بحرا..

فهو شديد على الطغاة .. رحيم بالأوفياء رحمة ظهرت فى موقفها من أمها التى جاءتها مشركة يوما . فاستأذنت الرسول ﷺ فى برها . فأذن لها . وإذا كان استئذانها شاهدا بغلبة عقلها قلبها فإن إذنه ﷺ يعنى أن الإسلام إذ يحيى فى قلبها الصمود على الحق .. فإنه أبدا .. لا يقتل الحب .

* * * * * *

أمومة من صنع الإيمان

عن عائشة - رضى اللّه عنها- قالت :

(دخلت عَلَىَّ امرأةٌ ومعها ابنتان لها . تسأل .

فلم تجد عندى غير تمرة واحدة . فأعطيتها اياها .

فقسمتها بين ابنتيها . ولم تأكل منها .

ثم قامت . فخرجت .

فدخل النبى ﷺ علينا . فأخبرته . فقال :

من ابتلى من هذه البنات بشىء . فأحسن إليهن . كن له سترا من النار) (١) .

وفى رواية :

(.. فأطعمتها ثلاث تمرات :

فأعطت كل واحدة منهما تمرة . ورفعت إلى فيهـا تمـرة .. لتأكلهـا فاستطعمتها ابنتاها .

فقسمت التمرة التى كانت تريد أن تأكليها .. بينهما .

فأعجبنى شأنها فذكرت الذى صنعت فقال :

إن اللّه أوجب لها بها - بالتمرة - الجنة) (٢)

تمهيد

تأخذ العبادة خطها الرأسى .. تعظيما للّه تعالى .. ثم خطها الأفقى .. شفقة على عباده ..

وإذا كانت البنت بحكم تكوينها أضعف من أخيها .. فهى أحوج إلى مزيد من الشفقة .. لتعتدل كفتى الميزان ..

وذلك : بالإنفاق علي البنـات .. والصـبر علـى تصرفـاتهن .. مـن حيـث كـانت البنت « ابتـلاء » . يكـره النـاس فـى العـادة اسـتقبالها .. ولا يكفـى الانفـاق . وطيـب الأخلاق .. وإنما يتم ذلك كله وهى حاضرة فى بؤرة الشعور .. كما يفهـم مـن قولـه

---

(١) مسلم : باب البر والصلة ج ١٧٩/١٦ .

(٢) نفس المرجع والموضع .

ﷺ .. (من عال جاريتين ..) والعول هو : القرب .. بمعنى أن تربية البنت لا تتم «بالمراسلة».. وإنما تكون معنا .. وفى دفء العواطف تتنامى فى شخصيتها .. ثم تنضج فى حرارتها لتكون أما بعد أمها .. وامتدادا لحياتها .

وتمام الحديث السابق :

(من عال جاريتين حتى تبلغا .. جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين) وضم أصابعه [١] وواضح أن صحبة الرسول ﷺ فى الجنة سلعة غالية .. وإذا .. فهى لمن يدفع الثمن ..

والثمن هو كما يفهم من مجموع الأحاديث الواردة فى هذه الشأن هو :

أ - أن يضم البنت إليه .. وفى بيته .. ينشر عليها من رحمته .

ب - ألا يضيق ذرعا بالبنات مهما كان عددهن .

ومهما تعقدت مشكلاتهن .

ج - أن يظل معها وفيا .. يزاملها حتى تتجاوز أخطر مراحل العمر ..

(حتى تبلغ) .

الجزاء

والجزاء بعد ذلك هو :

١ - تكون البنت سترا من النار .. تزحزحه عنها ..

٢ - ثم لتدخله الجنة بعد ذلك .

٣ - ليكون فى صحبه رسول اللّه ﷺ .. والصحبة فى ذاتها منزل لو تعلمون عظيم .

إن مجرد الرعاية .. والاستشعار عن بعد .. لا يكفى من قبل أم تخلت .. أو أب مشغول . وإنما هى الرعاية المباشرة والشاملة :

أ - غذاء للجسم

ب - غذاء للعقل بالعلم .

جـ - والإرادة بالصقل .

---

(١) مسلم ج ١٦ / فضل الإحسان إلى البنات / ١٨٠ .

د- والقلب بالملاطفة والتكريم ..

ويعنى ذلك :

أن يدخر الوالدان للبنت أفضل أوقاتهما .. وأعدلها مزاجا .. أما ما يحدث اليوم فهو الوقت الردئى .. الذى لا يفرغ البال فيه لتربية مثالية فاعلة .

دور الأم

ولأن الجنس إلى الجنس أميل .. وبه آنس .. فإن للأم هنا دورها المرموق فى تربية البنت ..

بل وفى تربيتها على أو فى معانى الإحسان كما يشير الحديث الشريف :

[فأحسن إليهن]

وإذا كان هناك من يبخس البنات حقّهن قائلا :

[إنهن يلدن الأعداء . ويورثن الشحناء ويثرن البغضاء]

إذا كان هناك من يقول ذلك .. فإن موقف الأم يشجب هذا الإتجاه مؤكدا أن البنت :

[تفاحة القلب . وريحانة العين :

يعن على الزمان . ويذهبن جيش الأحزان]

لولا بنيات كزغب القطا ردون من بعض إلى بعض

لكان لى مضطرب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض

إن هبت الريح على بعضهم امتنعت عينى عن الغمض

وقال بعضهم :

أحب النبات .. وحب البنات فرض على كل نفس كريمه فإن شعيبا من أجل أبنتيه .. أخدمه الله موسى كليمه

مغزى موقف الأم :

وقد كانت هذه الأم تحب بناتها .. وبهذا الحب احتلت مكانها بين الكرماء :

لكنهاد فعت الثمن أولا .. فاستحقت هذا التكريم :

ذلك بأن الرسول ﷺ يقول :

[من ابتلى من هذه البنات بشىء ..] .

وليس المقصود البلاء بالشر .

ولكن المقصود هو :

من قدر الله له .. بدليل أنه تعالى يبتلى بالخير كما يبتلى بالشر :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : ٣٥]

أهمية تربية البنت :

وإنه لحق أن يقال : إن تربية البنت أصعب منالا .. لحساسية وضعها تحت سقف البيت :

ومن مظاهر هذه الصعوبة :

قد تخطب الصغرى .. قبل الكبرى .

وقد يخطئ الابن .. ثم يخرج من البيت مغاضبا .

أما أخته .. فهى لا تستطيع ذلك .

وإذن .. فإن تربيتها تحتاج إلى ربان ما هر .. يتحلى بمزيد من الصبر .. والصبر الجميل .. وفاء لحق هذا الكائن الضعيف فى رقابنا .

[ماذا فعلت الأم ؟]

ونتأمل موقف الأم الرءوم من خلال الحديث الشريف . وكيف تحملت مسئولياتها تجاه بناتها .. فيطالعنا الموقف بما يلى :

لقد تعلمت الأم من « العصفور » درسا :

إن العصفور يحب الغناء .. ولكن مهمته الأولى هى :

١ - بناء العش أولا .

٢ - ثم البحث عن غذاء لصغاره !

وهاهى ذى تبحث عن الحب .. لزغب الحواصل : لا مكان للرفاهية.. ولا بد من لقمة الخبز .. أولا ..

ذلك بأن جمال البنت « صحة » وليس هو ذلك التزويق أو تلك المساحيق !

ولقد كان « ابن سينا » يكتب بعض وصفاته للمريض ..شعراً .. لقد كان مكفول الحاجة .. معتدل المزاج .. مباركا .. فكان بيت الشعر سبيله إلى مرضاه .. فكان

فى نفس الوقت لونا من الرفاهية .. التى ينبغى تأجيلها .. حتى يستوفى البيت حاجاته الملحة .

ولقد أدركت الأم بحسها البصير أن طعام « العزة » أغلى وأعلى :

لقد كان من الممكن أن ترسل البنتين إلى أية دار فى المدينة تسألان الناس : أعطوهما .. أو منعوهما ..

لكنها رأت أن بناتها أحوج إلى معنى العزة .. منهن إلى لقمة الخبز : فكان تصرفها ماضيا لتحقيق ذلك :

لقد مدت يدها هى .. ولم تمتد يدا بنتيها ..

وامتدت إلى أمها .. أم المؤمنين ..

وإذن .. فلا هى .. ولا ابنتها حملت منَّةَ من أحد ! .

وما أكثر الفارعين والفارغات .. الذين يعيرون البنت بأنها كانت خادمة .. أوكانت سائلة ..

ولكن حكمة الأم هنا حمت البنات من هذا المصير بهذا القلب الكبير ! . ومن أجل هذا قررت ما يلى :

أ – أن تذهب – بالذات – إلى الرائد الذى لا يكذب أهله .. ألى رب العائلة الكبير .. تفاد بالإحراج لو سألت غيره منطلقة من عقيدة تؤكد :

أنه ﷺ : ولى من لا ولى له .. ومن ترك دينا فعليه قضاؤه .. ومن كان جائعا فعليه غذاؤه !

ب – ثم إنها تصون كرامة البنتين .. وتستبقى حياء هما حين تذهب معهما .. لتنوب عنهما فى السؤال .. إبقاء على مشاعر الكرامة أن تطير شعاعا حتى إذا صارت البنت بعد ذلك زوجة .. لم تجد من يمن عليها بمعونة .. أو يؤذيها بكلمة نابية . لقد صارت الأم قدوة تجسد معنى العدل .. بل ومعنى الإيثار :

لقد أعطت الأم كل واحدة .. تمره .

وتلك هى قيمة العدل والمساواة . والتى بمقتضاها تحب الأخت أختها ..

والتى عززتها الأم .. بشق التمرة الباقية نصفين وفى شق هذا الجرم الصغير : تحر للتسوية .. التى يجىء النصفان بها متعادلين تماما .. تعاد لا لا يبقى فى نفس البنت أثرا .. لأثره !

ومع ذلك كله تبدو قيمة الإيثار .. الذى ترقت به الأم فى سلم الكمال صاعدة .

الإيثار الذي خرج من بيت النبوة عملاً .. لا حديثاً يروي ..

لقد آثرتها عائشة- رضي اللّه عنه .- وابنتيها بكل ما في البيت .. فكيف لا تؤثر هي .. ابنتيها .. فلذة كبدها ؟!!

إنه الإيثار المشتق من إيثار بيت النبوة .. والذي جاء على أو في معانيه

ذلك بأن الثمرة التي تخصها لم تكن في جيبها .. ولا في خزانتها أو حجرها ..

ولو كان الأمر كذلك .. لكان الجود بها ممكناً .. ولكنها رفعتها فعلا إلى : فيها.. ثم سال بها لعابها .. وتهيأت المعدة الخاوية لاستقبالها .. ولم يمنعها ذلك من انتزاعها من نفسها .. وردها إلى ابنتيها .. اللتين سوف يحبانها .. لهذا الإيثار .. حباً يدعم الحب بين الأخوات كلهن .. ليكون الإيثار شرعة البيت ومنها جه .

العود الحميد

وتعود الأم إلى بيتها قرير ة العين بما رأت وما سمعت ..

وإذا كانت قد عادت بتمرة واحدة .. أو ثلاث .. فقد كان ذلك هو كل ما في بيت النبوة ..

ولا يعنينا في الإحسان حجمه .. وإنما القلب الكبير من ورائه .. والذي يسع المحاويج .. تأتيه من كل فج عميق ..

ويكفي أن يشعر المحتاج أن بجانبه قلباً كبيراً .. يقف معه في الملمات ..

وما أكثر المرائين الذين يملأون الجيوب .. ثم يأخذون من القلوب كرامتها .. ولكن الأسرة تعود بكرامتها .. وعزتها .. وما فاتها من الدنيا شئ تبكي عليه !.

من ملامح بيت النبوة .

ولكن ما إذا عن بيت النبوة من خلال هذا الموقف ؟

أ- ليس في بيت النبوة إلا تمرة واحدة !!

ومع ذلك كان أسعد البيوت على الإطلاق .

إنه البيت الذي تبرع بآخر ما يملك .. ليحس بأقصى ما يملك إنسان من الرضا.. حين آثر القيمة على متاع زهرة الحياة الدنيا .

ب- وإذا كانوا يقولون اليوم : إنه إذا كان الزوج بحراً .. فيجب أن تكون الزوجة "سدا" حتى تضع حداً لإنفاق الرجل ..

إذا كانوا يقولون ذلك .. فقد كانت عائشة- رضي الله عنها - بحراً إلى جانب البحر..

وكانت وهي التي تربت في بيت تاجر غني هو الصديق . كانت نعم الزوجة التي رضيت من الحياة الزوجية بصحبة رسول الله ﷺ .. حتى تبرعت بكل ما في البيت غير عابئة بما يترتب على ذلك من آثار .

جـ- ثم هي تقف إلى جانب الزوج العظيم :

تنقل إليه خبر هذه الأم .. أي تنقل إليه " نبض الشعب" آلامه ..آماله .. صادرة في كل ذلك عن إحساسها العميق بمستوياتها كأم للمؤمنين :

ترعاهم .. وتأسو جراحاتهم .. وتحل المعقد من مشكلاتهم ..

د- ثم تأمل إعجابها بما فعلت الأم :

إن مشاعر الإعجاب هنا .. تذكرنا بنماذج للغرور فى دنيا الناس تأبى أن يسبقها إلى الفضل غيرها .. من تلك القوى الشعبية الصاعدة .. لتظل الفضيله حكرا على القمة العالية ..

ولكن المتقين .. يتجهون إلى هدف واحد .. ومن ثم فهم لا يختلفون .. ما دام الكل يصب فى هذا الهدف ..

وإذا ختلفوا يوما .. فإنهم يختلفون أيهم يقدم للحياة أكثر من غيره ..

تماما كهؤلاء الذين رفض كل واحد منهم أن يشرب قبل أخيه جرعة ماء .. حتى ماتوا جميعا شهداء الوفاء قبل أن يموتوا شهداء المعركة ! .

مسك الختام :

ومسك الختام هنا :

ما كان من تقديره ﷺ لعمل العاملين وتنويهه بما يحرزون من سبق فى مجال القيم .. مما يسعد الحاكم الذى يرى أثر دعوته فى سلوك أمته . وما يترتب عليه من تفتح المواهب فى هذا المناخ الصحى ..

وفى زحام الحياة وصخبها قد لا يسمع أحد صوت أحد .. ولكن اليد الحانية تمتد بالعطاء إلى المحروم .. ومن خلال هذا الزحام .. تنتشله من وهدة الهوان .. ليظل أبدا هو الإنسان .

الإنسان .. الذى هو أغلى من كل ما تحفل به الأكوان : وإذا كانوا هناك نقاس.. يقولون :

إذا شتعلت النار فى حجرة بها : طفل .. وتمثال جميل .. ولم يمكن إلا إنقاذ واحد منهما .. فانقذ التمثال .. لأن لا يعوض ؟ ! إذا كان ذلك من مقررات بعض الفلسفات فإن الإسلام لا يهمه إلا الإنسان .. الذى هو أثمن درة فى تاج الوجود فإذا كان هذا الإنسان بنتا .. سوف تكون عذا .. أما .. إذن .. فما أخطر المهمة .

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

وإذا يقول « فورد » ملك السيارات عن زوجته :

إنها « المؤمنة » لأنها كافحت معه حتى وصل إلى ما وصل إليه .. ولو لم تكن هذه السيدة لما حققت بعض ما انجزت . فما أجدرنا أن نغالى بأمنا التى لم تسهم مع زوجها فى بناء مصنع . وإنما أسهمت معه فى بناء الإنسان !! .

الموقف .. بلغة العصر :

بعد الفراغ من كتابة هذه الصفحات .. قرأت ما أسعدنى .. مما يؤكد أن نهر العطاء ما زال يقطع رحلة الحياة وإن الأم العربية المسلمة مازالت تحتفظ بهذه الروح الكادحة المجاهدة ..

وقد يغيب العائل .. ويرحل الرفيق .. ثم يترك من بعده ذرية ضعافا .. لكن الأمّ .. تحمل الراية من بعده .. راضية بقدرها :

تقول واحدة من الأمهات المجاهدات :

[كانت دائما سعادتى لا حدود لها وأنا أرى نظرات الدهشة الشديدة وعدم التصديق عندما يعلم الناس أننى « أم ابنتى » الشابة ولست اختها كما اعتقدوا وكان قلبى لا يتسع لكل ضحكاتى السعيدة بذلك فتنطلق منه إلى شفتى مهللة حتى كان الأسبوع الماضى حيث نظرت إلى ابنتى . وهى تعبث بشعرى . وفى عينيها البريئتين هول مفاجاه ، وقالت : يا ماما .. يا .. كل هذا الشعر الأبيض ؟ وضحكت هذه المرة أيضا ولكن ضحكة عتاب .. ألا تعرف هذه الجميلة سبب هذه الشعيرات

البيضاء .. إنه أنتم يا أحباب القلب .. وحبات العين .. وروح الحياة .. أنه أنتم يا أولادى وفلذة كبدى .. أنا لا ألوم ولا أعتب ولا أشكو - بل على عكس ذلك فأنا بقلبى وعقلى ، روحى مدينة لكم بالشكر .. نعم شكراً على كل سهر احترقت به وأنا أنتظر عودتكم من شوراعنا المجنوية .

شكراً على كل أرق اعتصرنى ليالى طوالا وأنا أبحث عن حل لمشاكلكم المعقدة.

شكراً على كل نبضة قلب طائشة فقدت صوابها خوفا من أخطائكم المتهورة .

شكرا على كل شوق اشتعل فى قلبى لغيابكم فى سفر طويل شكرا على كل دمعة أدفأت وسادتى وأنا أدعو الله لكم بالنجاح واخشى عليكم الفشل .

شكراً على كل حبة أعصاب مهدنة ارتعشت يداى وأنا أبتلعها لتهدىء من روعى وقلقى عليكم من أخطار هذا الزمان .

شكرا لكل ذلك فإن أيديكم الحبيبة الصغيرة التى أعطتنى هذه الهموم والآلام .. هى نفسها التى تحملنى لبداية طريقى إلى الجنة فبالقلق والأرق والسهر ينفتح لى هذا الطريق وبالرعاية والهداية والعطاء تضاء لى جوانبه ، وعسانى بكل ذلك أن أنال غاية الغايات ، وأن أكون عند أقدام هذه الجنة الموعودة اتى قال عنها رسولنا الكريم ، أنها تحت أقدام الأمهات] .

وما أكثر الأمهات الكريمات اليوم .. واللائى آد ظهورهن ثقل حملهن .. وإنهن ليتلفتن يمينا وشمالا .. باحثات عن يد تمتد إليهن من خلال زحام الحياة .. ولكن أمرهم كان على ما يقول الشاعر :

إذا قلت يوما لمن ترى : أرونى السرى .. أروك الغنى !

ثم لذن بالصمت .. انتظارا للفرج :

كهذا النبيل الذى وصفه الشاعر :

يرى درجات المجدلا يستطيعها ويقعد وسط القوم لا يتكلم

ولا بأس من الحاجة .. إذا بقيت العزة ..

وما تزال الأم الشريفة مع حاجتها كما يقول شيخنا الغزالى :

حافظة للود ..

حامية للعرض

فهى فى عبوديتها أشرف من كل : حر .. أبيض .. يُسَوِّدُ بخيانته بياض الحياة!

الزوجه الوفية : كأنك تراها

أخرج الطبرانى بإسناد حسن . عن طلحة بن يحيى . عن جدته سعدى- رضى الله عنها - قالت :

دخلت يوما على طلحة [تعنى : ابن عبيد الله زوجها] فرأيت منه ثقلا . فقلت له :

مالك ؟ لعله رابك منا شىء . فنعتبك [نترك ماتكرره ونفعل ما يرضيك] .

قال : لا .. ولنعم حليلة المرء المسلم أنت .

ولكن : اجتمع عندى مال .. ولا أدرى كيف أصنع به ؟ .

قالت :

وما يغمك منه !

أدع أهلك . وقومك . فاقسم بينهم . فقال : يا غلام :

علىّ بقومى .

فسألت الخادم : كم قسم ؟ قال :

أربعمائة ألف]

تمهيد :

قال المثنى بن زهير :

[ما رأيت شيئاقط فى رجل وامرأة .. إلا وقد رأيته فى الحمام :

رأيت حمامة لا تريد إلا ذكرها . ورأيت حمامة لا تمنع شيئا من الذكور .

ورأيت حمامة لا تزيف [تمشى فى دلال] إلا بعد شدة طلب . ورأيت حمامة تزيف للذكر ساعة يطلبها .

ورأيت حمامة وهى تمكن آخر . ما تعدوه] « عيون الأخبار كتاب الطبائع » ومن مملكة الطير . إلى مملكة الإنسان لتجد الناس مذاقات وطعوما . فإذا كان الإنسان هو الزوج .. أو الزوجة .. كان إحساسنا قويا بمايكون هناك من فروق فردية بينهما.. ربما تتسع بها مسافة الخلف .. إلا أن تداركها كلمة هادية ..

ذلك بأن الأمر على ما قيل :

[إن شرارة الاختلاف – وخاصة بين الزوجين – سريعة الانتشار :

إنها كالخلية الواحدة : تتكاثر بالانقسام]

ألا وإن غضب الزوج أو الزوجة أمر وارد . على أن تظل القضية محصورة بينهما .. وتحت سقف البيت لاتتعداه : لماذا ؟

لأن الزوجين – وفى لحظة غضب طارئه – قد يتبادلان العتاب والذى قد يصعد ليكون السباب .. فالعذاب !

وفى لحظة صفاء .. ينسى كل شيء .. وكأن شيئا لم يكن ولكن تظل الأم أو الأب يذكران ما حدث فلا يغيب إن لم يكن مضروبا فى عشر .

وإذن . فلا بأس من الغضب .. لكن البأس كل البأس أن تنتقل الأسرار خارج الدار .. أولا يكون خلاف بالمرة .

وعلى هذا السنن اللاحب .. سار الاتقياء من سلفنا الصالح ومنهم الإمام أحمد الذى قال يوما :

تزوجت « أم صالح » فمكثت معى ثلاثين عاما ما اختلفنا فى كلمة «واحدة»!!.

وربما كان حول هذا العالم الجليل دور وقصور .. تعج بمباهج الدنيا ولكن القلوب هناك مختلفة :

يغضب الزوج لأن رأيه لا يطاع وعندئذ يتحول البحر إلى بحيرة . تموت فيها كل الأسماك .. ولا يبقى إلا الدموع .. حين لا تجدى الدموع .

« سعدى » ومبادرة الصلح

لقد كانت الزوجة صاحبة مبادرة الصلح ..

وحين يأخذ بعض الأزواج الموقف المتشدد .. صادرين عن إحساس حاد .. بالرجولة التى لا ينبغى أن تلين ..

وإذا كان هناك فى البيت صغار .. لا يرقب الزوج فيهم راحة ولا سعادة .. فإن الزوجة البارة الوفية .. تتودد . وتتحبب إلى زوجها ..

إن الهدف هنا عظيم وهو : إنقاذ الأسرة من الانهيار إذا ما اشتط بالرفيقين المزار .

وما دام الهدف عظيما .. فإن التضحيات مهما كانت جساما .. فإنها تهون .

علـى أن يدخـل فـى هـذه التضحيـات : التفكـر بعمـق . لا كتشـاف أسـباب الاختلاف.. وجذوره لتبدأ مهمة الإصلاح . والعود الحميد إلى الماضى المجيد .

وهنا .. لن تستطيع المجاملة العابرة . ولا الترضية بمعسول الكـلام .. أن تحل العقدة .. لأنه دهان على الوبر لا يستأصل العلة الكامنة هناك تحت هذا الوبر .

وهذا ما أدركته الزوجة هنا .. حين اقـتربت مـن زوجهـا .. فـى لحظـة صفـاء تهيىء النفوس للفهم .. ثم للتفاهم :

لقد كان الزوج منذ لحظات سعيدا .. يسعد به البيت كله .

لكن شيئا غريبا عكر الصفو .. وسحابة داكنة حجبت الشمس .. وفتـح الصغـار أعينهم على شىء لم يعهدوه .. ذلـك الصمـت المريـب بيـن الوالديـن .. فانطفـأ فـى وجوههم القنديل . وجلسوا ينتظررون الفرج

الأم تنقذ الموقف :

وإذا كانوا يقولون : ما بين الكرام حساب .. بمعنى أن ينفق كل واحد ما شاء له كرمه .. بلا حساب ولا عتاب .. فإن الزوجة هنا تبادر فتتساءل فى أدب عن سر ما ترى :

إن بعض الزوجات قد يلذن بالصمت بينما يبدو الزوج معتل المزاج ..

لكنه الصمت المريب الذى يعنى الاستغناء عنه .. مما يعتبره تحديا لرجولته ..

من أجل ذلك تقطع « سعدى » هذا الصمت بقولها : مالك ؟ لعله رابك من شىء فنعتبك ؟

الأصل القرآنى :

والمرأة المسلمة هنا صادرة فى تصرفها عن القرآن الكريم : فاللّه تعالى يقول :

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَآءِ.. ﴾ [النساء : ٢٤] .

فالزوج حصن للزوجة تأوى إليه ..

ثم هى من « النساء » .

والنساء : اسم جمع لا واحد له من لفظه .. وإذن .. فهى لا وجود لها منفردة.. إنما وجودها فى بستانها .. فى بيتها .. تحت رعاية زوجها .. أو أبيها .. أو أخيها.. أو ولدها ..

وهى هنا تحقق هذا المعنى :

فهى لا تريد أن تتخذ البيت مهجورا .. وإلا وجدت نفسها فى العراء .. ومن ثم.. تقرر العودة إلى البيت المهجور عن طريق العتاب .. ويبقى الودما بقى العتاب. وهكذا المرأة الوفية دائما :

لها من نفسها الأبية عدة إذا فقدت العدة ..

وفى لحظة الشدة تظهر المعادن .. والحر وإن فقد كل شىء فيها لا يفقد مروءته.. ولا وفاءه :

وتراها تُؤنس زوجها .. فيطوى سمعه على صوتها حين ينام ..

تنثر من قلبها فى البيت .. فإذا هو جنة وارفة الظلال ..

وإذا استوى الناس فى العافية .. فإنهم عند نزول البلاء يختلفون وتظل الزوجة الوفيه على الود القديم .. وتسفر لحظات الشدة عن وفائها .. الذى صار حياتها .. فإذا هى لون آخر من النساء ..

فى الوقت الذى تسقط فى الإمتحان زوجات غافلات .

إن الحب الصغير يضخم الغنوات ..

لكن الحب الكبير بحر بعيد الشطآن .. لا تعكره الدلا ء .

[ناس .. أغلى من الماس]

لقد كانت الزوجة من قبل طفلة .. تفسر الأمور كما تراها ..

لكنها اليوم تكبر .. ويكبر معها وعيها .. فإذا هى تعرف أن كل ما تراه ليس صحيحا إنها تلك المرأة الحكيمة التى تسجل عيوبها ثم تحاول إصلاحها يوما بعد يوم.

وهى بذلك تؤكد طبيعة الجيل الذى رباه رسول اللّه ﷺ :

إنه الجيل الصالح أبدا لأن يكون القدوة : فى صفاء المعدن. وصياغة البناء ..

إنها معادن ناس .. هى أغلى من الماس ..

موقف الزوج :

لقد أتاحت الزوجة لزوجها فرصة ذهبية :

أ - إنها أعفته من صعوبة الإبتداء بالكلام .. فبقى فى الموقف الأفضل .

ب - ثم طردت بهذا التودد ذلك الشيطان المريد الذى نزغ بينهما ..

ج – وقبل ذلك أكدت كيف كان اختيار الشريك قطعة من عقل الرجل .. وأن التوفيق فى الاختيار طيب الثمار .. على ما قال ابن الجوزى :

[ينبغى للعاقل أن ينظر إلى الأصول فيمن يخالطه ويعاشره ويشاركه . ويزوجه أو يتزوج إليه .

ثم ينظر بعد ذلك فى الصور . فإن صلاحها دليل على صلاح الباطن .

أما الأصول : فإن الشىء يرجع إلى أصله ..

وبعيد ممن لا أصل له أن يكون فيه معنى مستحسن وإن المرأة الحسناء إذا كانت من بيت ردىء .. فقلّ أن تكون صينة .

فإياك أن تخالط إلا من له أصل يخاف عليه الدنس فالغالب معه السلامة .

وإن وقع غير ذلك كان نادرا]

وقد اختار « طلحة » – رضى اللّه عنه – ذات الأصل .. وهاهى ذى فى المحنة تؤتى أكلها .. توددا وتعربا .. ثم يجنى هو ثمرة اختياره . إن لحظة من الاختلاف لا تمحو بجرة قلم أو جره لسان ما فى شخصية الزوج من قيم أصيلة .. لا سيما وهى التى وصفته قبل ذلك فقالت :

[إنى لعارفة بخلائقه :

إن دخل .. دخل ضاحكا .

وإن خرج .. خرج باسما

وإن سألت .. أعطى .

وإن سكت ابتدأ .

وإ عملت .. شكر .. وإن أذنبت .. غفر] .

وها هو ذا لا يكتفى بالمغفرة وقد ضاقت المعذرة ..

وإنما يبالغ فى الإحسان عندما سارع إلى نفى التهمة عنها مؤكدا أصالتها وتفردها :

[لا .. ولنعم حليلة المرء المسلم أنت]

إن معنى تودد الزوجة هنا :

إنها مستعدة للمساءلة .. لو فرض وكانت هناك إساءة . وسوف تعود من بعدها إلى ما يرضيه .. وكما كانت له فى ماضيه .. فهى له كذلك فى آتيه .

وقد أثبت الزوج فعلا أنه أيضا [لنعم حليل المرآة المسلمه .. هو] .

وإذا خبرته وجدته حكيما . وإذا عضبت كان حليما .

وإذا ظفر كان كريما . وإذا وعد وَفَّى .. وإن كان الوعد عظيما] بل إنه ذلك الزوج الذى قيل له :

إن زوجتك أحسنت القول فيك . فقال :

لا جرم أكافئها .. فلما قيل :بماذا ؟ قال : أحقق قولها] .

ولقد حقق الرجل قولها بهذه الإشادة بها .. وما يترتب على هذه الشهادة من أنس ينشر ظله على كل من فى البيت : إن بعض الأزواج قد يعتصم برجولته .. ثم بسعة الساحة خارج البيت .. والتى يمكن أن يتقلب فيها بعيدا عن من فى البيت ..

حرا طيلقا .. بينما أهله يتضورون جوعا إلى حنانه .. لكن طلحة – رضى اللّه عنه –.. وإن كان يملك ذلك كان يعتقد أن تفتح زهرة واحدة لا يدل على مجئ الربيع.. لا بد أن تتفتح كل الأزاهير .. وأن تغنى كل العصافير .. وأن سعادة لاتتقسم على الزوج وأهله وولده . لهى سعادة عقيمة ..

عقيمة يعنى : لا تلد .. لا تلد أمنا فى البيت ولا سلاما .

لقد أظفره اللّه تعالى بذات الدين فهى : أقل مئونه .. وأكثر معونه .

وها هى ذى تثبت ذلك عمليا وفى نفس الجلسة المباركة :

إن الزوجة – بعد أن اطمأن قلبها – يهمها أن تطمئن على قلب زوجها الذى بدا مهموما .. ولابد أن تقف معه فى خندق واحد .

فلما بين لها السبب اقترحت عليه أن يقسم ماله فى أهله هو .. لا فى أهلها .. متجاوزة بذلك واحدة من أعقد المشكلات الأسرية وهى تلك العداوة التقليديه بين الزوجة وأهل زوجها !! والتى لامسوغ لها .

وهكذا تفعل الزوجة الأصيلة .. والتى لا يتخلى عنها أصلها فى ساعة العسرة .

إن الخاتم الحديد .. والخاتم الذهب : كلاهما يدفن فى كومة من التراب .. لكن الحديد يصدأ .. بينما الذهب يظل محتفظا ببريقه لا يصدأ وإن طال المدى .

وبضدها تتميز الأشياء :

وإذا كان « أهل الزوج » واحدا من المجالات التى تمتحن فيها القيم ..

وإذا كانت زوجة « طلحة بن عبيد الله » قد تجاوزت الامتحان بنجاح فقد سقطت « نائلة بنت عبد اللّه » زوج طلحة بن عبد الرحمن فيما نجحت فيه أخت لها من قبل :

لقد كان طلحة بن عبد الرحمن بن عوف من أجود قريش فى زمانه .

قالت له زوجته « نائلة » يوما :

ما رأيت قوما ألأم من إخوانك !

قال لها : مه ! .. ولم ذلك ؟ قالت :

أراهم إذا يسرت .. لزموك . وإذا أعسرت تركوك ! فقال لها :

هذا واللّه من كرم أخلاقهم : يأتوننا فى حال قدرتنا على إكرامهم . ويتركوننا فى حال عجزنا عن القيام بحقهم !

وهكذا كانت المرآة كما قيل :

[فيها عمق البحر . ومد الأمواج وجزرها . ولمعان النجوم . وحرارة الشمس. وقطرات الندى . وتقلبات الرياح . وتمايل الأغصان . ولطف النسيم ..

كما أن فيها لين الحية ونعومتها وتلون الحرباء . ونفار الغزال] .

الزوج حيث يضع نفسه :

وإذا كانت هذه طبيعة المرأة كأنثى .. والتى يكمن فيها السم . والترياق معا .. فإن الزوج مطالب بحسن التعامل معها .. وهو حيث يضع نفسه :

[إن داخل كل زوج هناك فارس متمنطق بالرمح والدرع .. هناك عنتر وعبلة!.

وعندما ما يشعر الرجل بالثقة فإنه يخرج ما فى نفسه من أشياء جميلة وعندما يشعر أنه غير موثوق به يخسراحترامه لنفسه . ويكون أقل رعاية لشريكته] .

إنك أيها الزوج تعيش مع شخص آخر :

وهذا الشخص له مثل مالك .. وبالمعروف : له حياة وآمال وعواطف وعليك أن تفكر فيها ..

ولو كان الخلاف بين رجل ورجل ، لكان المتوقع هو الشد باتجاهين متعاكسين.. يوصلان إلى القطيعة فى النهاية ،أما إذا كان الطرف الآخر هو الزوجة فإن الأمر يختلف فالرجال يحتاجون إلى الاحترام . والإخلاص والثقة ..

والنساء يحتجن إلى الأعجاب والرعاية والتشجيع .

وقد وقف كل من الزوجين فى هنا الموقف عند حدوده .

وطبق ما تمليه وظيفته .. فكان الوئام . بعد الخصام .

وقد نرى واقع الزوجين اليوم يجافى هذه الحقيقة .

فالزوج يتعامل مع زوجته .. بناء على ما يعرف وما يتوقع والزوجة تتعامل معه .. لا بناء على ما يحتاجه .. ولكن .. بناء على ماتهوى .

وتتسع المسافة بين ما يتوقع .. وما تهوى .. حتى تظن أن الزوج من كوكب المريخ والزوجة من كوكب الزهرة !!

إلى الود من جديد :

قلنا فيما سبق :

إن « النساء » اسم جمع لا مفرد له .. بمعنى أن المرأة لا وجود لها منفردة ..

وأن سعادتها مع إيقاف التنفيذ حتى تتكامل مع شريك حياتها ليجتمع بذلك : السالب والموجب .. فيضىء المصباح . أو يشرق الصباح ..

وقد أكدت الدراسات العلمية هذا المعنى :

[بعكس ما قد يعتقده البعض أوضحت دراسة أمريكية فى جامعة نيويورك أن قضاء وقت أطول مع شريك الحياة يعد واحدا من أفضل الطرق لخفض ضغط الدم. وقالت الدراسة : إنه عندما يكون الزوج أو الزوجه بصحبة شريك حياته ، فإن ضغط الدم ينخفض إلى ما دون المستوى الذى يصل إليه عندما يكون الشخص وحيداً أو مع أصدقاء .

وقالت : إن هذه النتيجة تنطبق أيضا حتى لو كانت العلاقة بين الزوجين ليست جيدة . وأكدت الدراسة أن السبب فى تلك هو علاقة الاعتياد بين الزوجين التى من شأنها بث الشعور بالاسترخاء بينما يؤدى التعامل مع الغرباء إلى شعور بالتحفز] .

بضاعتنا ردت إلينا

وما يقوله الباحثون الأجانب هو بضاعتنا ردت إلينا :

[فالعرب لم يكونوا شعبا بدائيا يجهل عاطفة الحب ويقيم الزواج على أنه اتصال حيوانى لإشباع الجنس ..

لقد شهد المنصفون من الباحثين شرقا وغربا بأن الزوجة العربية كانت أرفع مكانة من المرأة اليونانية والرومانية . لأن هذه أوتلك لم تكن تنال مثل ما نالت المرأة العربية فى ظلال الأسرة العربية . من حب زوجها وتقديره .

كما شهدوا بأن الأوربيين لم يعرفوا للمرأة هذه المكانة الرفيعة إلا بعد أن فتح العرب الأندلس . ونقل عنهم الأسبان والأوربيون حب المرأة وتقديرها فيما نقلوا][1].

ومالم يسجله الكاتب هنا هو : ما أضافه الإسلام إلى عروبة المرأة من وفائها لزوجها . وتقديرها له : حيا وميتا . إلى الحد الذى قرر فيه الفقهاء :

أنه إذا خرجت الزوجة لأداء فريضة الحج . ثم بلغها وفاة زوجها قبل الميقات.. فإن عليها أن تعود إلى دارها .. وفاء وانتماء .

مع الشيخ على الطنطاوى

وقد يكون من المفيد أن نؤكد ما قلناه .. بما قرره الشيخ على الطنطاوى فى هذا المجال. قال رحمه الله :

[قد يغتفر الرجل لصديقه مالا يغتفر لزوجته ، ويحمل منه مالا يحمل منها . يتسامح معه فيما لا لا يتسامح معها فيه . وما ذلك إلا لأنه يصدق الخرافة التى تقول:

إن الرجل والمرأة كليهما مخلوق واحد : فهو يريد منها أن تفكر برأسه ، وهى تريد منه أن يحس بقلبها ، مع أن الناس كخطوط مستطيلة وفيها اعوجاج يسير ، فإذا كانت متباعدة بدت للعين متوازية متوافقة تضيع من البعد هذه الفوارق الصغيرة بينها ، فإذا تدانت وتقاربت ، بانت الفجوات ، فأنت تصحب الصديق عشرين سنة ، فلا ترى فى هذا الأسبوع ما لم تره فى السنين العشرين ، فتشنؤه وتبغضه وقد كنت تحبه وتؤثره .

واللّه لم يخلق اثنين بطباع واحدة ، لا الصديقين ولا الزوجين ، فليكن الزوجان متباعدين قليلا ، حتى لا يظهر الاختلاف بينهما وليكن بينهما شىء من الكلفة

---

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى – أحمد الحوفى ١٥٩ – ١٦٠ .

والرسميات .. كما يكون فى عهد الخطبة وأوائل الزواج ، ولتكتم عنه بعض ما فى نفسها ، فإنه ما تكاشف اثنان إلا اختلفا . وما زالت الكلفة إلا زالت معها الألفة ، لأن المرء يتظرف ليظرف ، ويتلطف ويسـابر النـاس ليحبـه النـاس ، فـإن لـم يفعـل ثقـل عليهم ، وأنا أعرف رجـالاً مـن أهـل النكتـة والظـرف ، يحـرص النـاس عليهـم فـى مجالسهم لخفة أرواحهـم ، وحـلاوة أحـاديثهم وإذا دخلـوا بيوتهـم كـانوا أجهـم النـاس وجهاً، وأيبسهم لسانا ، وأثقلهم نفساً وما ذاك إلا لإسقاط الكلفة ، وإذهاب المجاملة .

وثالثها : أن الرجل يمشى فى الطريق فلا يرى إلا نساء فى أحسن حـالاتهن قـد طلين وجوههن ، وجملن ثيابهن ، ثـم يدخـل داره ، فيرى زوجـه علـى شـر هيئـة ، وأقبح صورة : مصفرة الوجه ، قذرة الثوب ، منغمسة فى أوضار المطبخ أوغارقـة فى غبار الكنس ، فيظن أن نساء الطريق مـن طينـة غـير طينتهـا ، وأن عندهـن مـا ليس عندها ، فيميل إليهن وينصـرف عنهـا ، والـدواء أن تكـون المـرأة عاقلـة ، فـلا تجعله يراها إلا فى الهيئة التى تخرج فيها من بيتهـا ، وتسـتقبل عليهـا ضيفهـا ، ولا تدعه يبصرها نائمة ولا يراها بغير زينة ، ولا يطلع عليها فى مباذلها وأعمالها .

ورابعها : أنه لا بد لكل شركة أو جماعـة مـن رئيـس ، فـإن كـان فـى المركـب رئيسان غرق المركب ، ولو كان فى السماء والأرض إلهان فسدت السماء والأرض فلابد من ترئيس أحد الزوجين والرجوع عند الاختلاف إلى رأيه ، واعتراف الثـانى برياسته، وعلى الرئيس بعد أن يكون حاكما بعدل ورفق ، وعلى المرؤوس أن يكون طيعا بفهم واحترام .

وخامسها : أنه لا بد لدوام المودة من اغتنام الفرصة لإظهـار العاطفـة المكنونـة بحديث حلو ، أو مفاجأة منه : هدية ولو صغرت ، وطرفة ولو قلت ، واهتمـام منهـا بصحته وراحة نفسه ومطعمه وملبسه وكتبـه ، وأن يصـبر كـل منهمـا علـى غضـب الآخر وتعتبه .

يا سادة : إن مشكلات البيت هينة سخيفة ، ولكنها إن اسـتفحلت نغصـت العيـش وسودت وجه الدنيا ، ولم ينفع معها ملـك ولا مـال ، فلقد كـان الامـبراطور نـابليون الثالث يجد من مكارهها مالم ينجه منه ملكه ، وكان الريئس لنكولن يلقى من متاعبها ما لم يخلصه منه سلطانه ، وإنى لأسأذن السيدات المستمعات بأن أختم هـذا الحديـث بكلمة لامرأة مثلهن هى (آن شرر) . قالت :

« إن بين كل عشر نساء يحرصن على مضايقـة الرجـل ، وتنكيـد عيشـه ولهـن إلى ذلك وسائل لا تحصى ، وهن يعتقدن أنه لا أمل للرجل إلا الثنـاء علـى جمـالهن

يومه كله ، وامتثال أو أمرهن ، وإجابة رغباتهن ، وإذا رأيتــه مقبـلاً علـى قـراءة أو كتابة أو عمل له ، اقتحمن عليه مكتبه ، ونفضن فى وجهه من المنغصات مـا يحيل عزلته سجنا ، وحياته جحيما » .

فيا سيداتى المستعمات : أرجو أن لا تكون فيكن واحدة من هؤلاء !] أ . هـ

وافدة النساء

[عن مجاهد :

قالت أم سلمة يا رسول اللّه :

[يغزو الرجال ولا نغزو .. ولهم من الميراث ضعف مالنا فليتنا كنا رجالا]

وفى رواية :

[أتت وافدة النساء إلى الرسول . وقالت :

رب الرجال والنساء .. واحد .

وأنت الرسول إلينا وإليهم .

وأبونا آدم وأمنا حواء .

فما السبب فى أن اللّه يذكر الرجال ولا يذكرنا ؟ ..

فنزلت الآية [ولا تتمنوا ما فضل به بعضكم على بعض ..]

فقالت :

وقد سبقنا الرجال بالجهاد .. فما كنا ؟

فقال ﷺ :

إن للحامل منكن أجر الصائم القائم ..

وإن ضربها لطق .. لم يدر أحد مالها من الأجر .. فإن أرضعت كان لهـا بكـل مصة أجر إحياء نفس] .

تمهيد :

قضية المساواة بين الرجل والمرأة قضية قديمة جديدة ..

فعن قتادة والسدى :

لما نزل قوله تعالى ﴿ يوصيكم اللّه فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾

قال الرجال :

نرجو أن نفضل على النساء فى الآخرة .. كما فضلنا فىالميراث وقال النساء :

نرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال .. فنحن أحوج ..

لأن ضعفاءهم أقدر على طلب المعاش [1]]

وهكذا بدأ الجدل مبكراً ومع بزوغ الإسلام حول حقوق كل من الرجل والمرأة . فكان هذا الحوار غير المباشر بين عنصرى الأمة .. والذى لم يتجاوز إحساس المرأة بحقها فى المغفرة جبرا لخاطرها .. ثم طمع الرجال أن يكون التفضيل فى الميراث مقدمةً للتفضيل فى الآخرة ..

ثم صار الرجاء مسموعاً .. وعلانية .. عن طريق هذا الاستفسار من قبل أم المؤمنين .. أمّ سلمة – رضى الله عنها – .. والتى تريد فيه توضيحاً أكثر لموقف المرأة.. مع التسليم سلفا بحكم الله تعالى ..

ثم انتهى الأمر أخيراً ليكون همًّا اجتماعياً .. شغل النساء جميعاً حتى اجتمعن وقررن إرسال إحداهن إلى الرسول ﷺ .. فكان هذا الحوار الذى يعبر عنه هذا الحديث الشريف : فعلى أى نحو كان هذا الحوار وكيف ارتفع إلى درجة كانت مثلاً لكل من أراد أن يتخذ إلى الحق سبيلاً ؟

وإذا كانت الحكمة تقول :

إعرف فى أى طريق تسير .. لتعلم إلى أية غاية تصير .. فقد عرفت النساء طريقهن .. إلى الرائد العظيم .. فهو وحده جهة الاختصاص فى إعادة الطمأنينة إلى القلوب .. وقد ظهرت حكمة النساء فى أمرين :

أولاً : فى قرارهن ألا يذهبن جميعاً فيما يشبه المظاهرة التى تثور فيها الانفعالات .. فلا تستبين فيها وجهات النظر .

وثانياً : فى حسن اختيارهن لممثلهن الشرعية .. والتى كان اختيارها دليلاً على حكمة من اختارها .. وذلك لما ظهر من حكمتها والتى بدت فى :

أ- حسن عرض القضية ..

ب- القضية التى تطرحها مدعومة بأدلتها .

---

(١) النيسابورى .

[قارن بين هذا التقدير فى الإسلام – وما يقوله المتاجرون بكرامتها [ولماذا الانتقام من المرأة ؟ والطبيعة قد تولت ذلك عنا : فى الحمل والولادة والرضاعة والأمومة]

جـ- وفوق ذلك كله فهي تسأل مسترشدة لا معاندة .. تسأل عن السبب في تفضيل الرجال على النساء .. مع أن الجميع متساوٍ في العقيدة .. والشريعة .. والنشأة .

فما سبب التفضيل ؟

الرد الإلهي :

ويجيء الرد الإلهي .. اعترافا بالحوار كمبدأ وسبيل إلى الحق .. ثم جاء بما يقضي على توتر الأعصاب .. بفصل الخطاب .. فقد نزلت الآية الكريمة :

﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ..﴾

ولا يزال الحوار مستمراً

ومع ذلك .. فقد كان من أمانة ممثلة النساء أن تصرح بكل ما يعتمل في صدرها .. وفاء للحق أولاً .. ثم لمن اخترنها ثانياً .. وها هي ذي تقول :

وقد سبقنا الرجال بالجهاد .. فما لنا ؟

الالتزام بالحق :

لقد نزلت الآية الكريمة قبل ذلك ناهية عن تمني نفس ما للغير .. فاستسلمت المرأة لأمر اللّه تعالى .. فلما رأت في الجهاد ما يمكن أن يكون سوقاً للخير حرمن منه .. وضح لها الرسول ﷺ حظ المرأة من الثواب إزاء ما كان للرجل .. إلى الحد الذي لو رضيت فيه المرأة بقدر اللّه تعالى لكان لها من الأجر مثل ما للعابد .. المجاهد .. لقد تصورت المرأة أنها تصادف في حياتها آلاماً .. لا يعانيها الرجل .. ومع ذلك فهي أقل منه ثواباً .. ولكنه ﷺ يكشف لها عن أمور لو عرفتها النساء .. ما كان بهن من حاجة إلى مؤتمر .. ولا إلى وافدة .. فهي من حملها في عبادة من أشق العبادات : الصوم .. والقيام .. وعندما يضربها الطلق .. فإن أجرها عندئذ بغير حساب .. فهو فوق الحصر .. وأجزل مما يتصوره البشر .. بل إنها واحدة من محرري العبيد .. وعليها أن تعد كل مصة .. كل مرة ألقمت وليدها ثديها .. لتدرك.. كم أحيت من نفوس ؟

إنه شيء يسابق الخيال .. ويعجز عن تصوره الخيال .

من دروس الموقف :

قال المحققون :

لا يجوز للإنسان أن يقول :

اللّهم أعطنى داراً مثل دار فلان .. وزوجة مثل زوجة فلان . وإن كان هذا غبطة لا حسداً . بل ينبغى أن يقول :

اللّهم أعطنى ما يكون صلاحاً لى فى دينى ودنياى]

والأمر على ما يقول تعالى : ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ أجل .. للرجال نصيب [من نعيم الدنيا وثواب الآخرة . فينبغى أن يرضوا بما قسم اللّه لهم] وكذا النساء : فلا ينبغى إضاعته بالحسد المذموم]

[لأن المقصود الأول لمدبر العالم وخالقه هو : الإحسان إلى عبيده . والجود إليهم .. وإفاضة أنواع الكرم عليهم .. فمن تمنى زوال ذلك .. فكأنه اعترض على اللّه تعالى فيما هو المقصود بالقصد الأول من خلق العالم وإيجاد المكلفين .

وأيضاً : ربما اعتقد فى نفسه أنه أحق بتلك النعم من ذلك الإنسان فيكون هذا اعتراضاً على اللّه وقدحاً فى حكمته سبحانه] (١) .

فالمفروض : أن يرضى المسلم ابتداء بقضاء اللّه تعالى .. فإن رضى ولم يقع تحت وساوس النفس .. وكيد الشيطان فنجا من الحصار المضروب . فله الرضا..

ولن يرفع قضاء .. حتى يرضى به

أما بعد

فهل بقيت أمنية النساء – كما قالت أم المؤمنين .. أم سلمة .. هل بقيت كما هى؟

هل ما تزال النساء فى شخصها يتمنين أن يكن رجالاً ؟!

الجواب :

بالعكس ..

---

(١) الرازى .

فإن وفرة ثواب المرأة ليثير رغبة الرجل فى مثل ثوابها وحتى التى لا تحمل ولا تلد .. فإن حسن تبعل المرأة لزوجها يعدل ذلك كله .. والحقيقة التى تفرض نفسها بعد ذلك كله .. أنه لا مساواة .. ليست هناك فى الإسلام قضية بين الرجل والمرأة تحمل هذا المصطلح ..

﴿ فللرجال نصيب مما اكتسبوا . وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾

ومن المساواة .. ألا تكون مساواة .. وأن تبقى العين عينا .. والأذن أذناً .. ولا فضل لإحداهما على الأخرى .. ولكن الفضل لمن رضى .. ثم أدى الذى عليه فى موقعه .. وعندئذ .. سوف تحلق الأمة بجناحين فى جو السماء

[الثمن الزهيد .. والعائد المفيد] .

أجل .. إن الفضل لمن رضى .. ثم كان مع ذلك حصيفا .. يستطيع بقليل من حطام الدنيا أن ينال من الفضل ما اللّه به عليم :

شتم رجل علياً بن الحسين – رضى اللّه عنه– . فرمى له بخميصة كانت عليه. وأمر له بألف درهم، فقال بعضهم : جمع له خمس خصال محمودة :

الحلم وإسقاط الأذى .. وتخليص الرجل مما يبعده عن اللّه تعالى .. وحمله على الندم والتوبة . ورجوعه إلى المدح بعد الذم . اشترى جميع ذلك بشىء من الدنيا يسير]

مجالات التنافس الحقيقى :

وإذا كان المسلم يبحث عن سعادته .. فيم تكون؟ .. فهذا حقه .. لكن واجبه أن يعى هذه الحقيقة : [أن مراتب السعادة : إما نفسانية نظرية : كالذكاء . والحدس .. وحصول المعارف والحقائق . أو عملية : كالأخلاق الفاضلة . وإما بدنية : كالصحة.. والجمال .. والعمر . وإما خارجية : كحصول الأولاد النجباء . وكثرة العشائر والأصدقاء . والرياسة التامة . ونفاذ القول . وكونه محبوباً للخلق . حسن الذكر . مطاع الأمر . فهذه مجامع السعادات . وبعضها محض عطاء اللّه تعالى .. وبعضها مما يظن أنها كسبية .

وبالحقيقة : كلها عطاء منه تعالى . هذا ما قاله النيسابورى – رحمه اللّه – .. ولكنه يعلل هذه النتيجة الأخيرة بما نلخصه فيما يلى :

فعندما يخطر ببالك مشروع ما : فلكى تنجـز هذا المشـروع .. لابـد مـن تيسـر أسباب حصوله ثم تنحية العوائق من طريقه .

والـذى هيـأ لـك الأسـباب .. ونحـى مـن طريقـك المعـاطب .. هـو اللّـه سـبحانه وتعالى .. وقبل ذلك .. فهو سبحانه الـذى أقـدرك علـى الاختيـار بـترجيح داع علـى داع. فالأمر والخلق له سبحانه وتعالى ..

لكن دور الإنسان هو السعى الدءوب فى إطـار هـذه الدائـرة .. سـعياً يبتغـى بـه حسن العاقبه . وذلك قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين:٢٦].

الطبيعة العربية :

وحتى إذا لم يكن تدين .. فإن العربى بفطرته مشغول بأهداف أكبر من مظـاهر الدنيا .. حتى لا تكون معركته من أجل لقمة الخبز .. وكفـى .. وهـو مـا ينبغـى أن يسارع إليه ..مدفوعاً .. بعقيدته وبفطرته .

يقول لسان الدين الخطيب : [العرب لم تفتخر قط .. بذهب يجمـع .. ولا ذخـر يرفع . ولا قصر يبنى .. ولا غرس يجنى .

وإنما فخرهـا : عـدو يغلـب . وثنـاء يجلـب .. وجـزر تنحـر . وحديـث يذكـر . وجـود علـى الفاقـة . وسـماحة بقـدر الطاقـة . فلقـد ذهـب الذهـب .. وفنـى النشـب . وتمزقت الأثواب . وهلكت الخيل العراب .. وكل الذى فوق التراب تـراب . وبقيـت المحاسن تروى وتنقل . والأعراض تجلى وتصقل]

فلنتعلم صناعة الحب :

إن الإسلام العظيم حريص على تنقية القلوب من أوشابها .. مانع من أن يكـون المسلم باخعاً نفسه ليحصل على ما يشتهى .. فمجال التنافس واسع .. وساحة السباق مفتوحه .. والمهم أن تبدأ فـى سـعيك .. إلـى أملـك .. شـريطة أن تفـرغ القلـب مـن سلبية الحسد .. ويستوى فى ذلك أن وصلت .. أم لم تصل إن استطعت فكن عالماً . فإن لم تستطع .. فكن متعلماً .. فإن لـم تسـتطع فـأحب العلمـاء .. فـإن لـم يطـاوعك قلبك .. فلا أقل من أضعف الإيمان : ألا تبغضهم !!

وهكذا .. يدعوك الإسلام لتصعد إلى القمة .. التى تتسع للجميع فإن لـم تسـتطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع .

أغلى ما يملك الإنسان

قال حاتم الطائى لزوجته يوما :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له	أكيلا .. فإنى لست آكله وحدى
أخا طارقا .. أوجار بيت فإننى	أخاف مذمات الأحاديث من بعدى
وإنى لعبد الضيف .. ما دام نازلا	وما فىّ إلا تلك من شيم العبد !

وترد الزوجة الوفية قائله :

لعمرى لقدما [1]عضنى الدهر عضة	فآليت ألا أمنع الدهر جائعا
وما إن ترون اليوم إلا طبيعة	فكيف بتركى يا ابن أمى الطبائعا ؟!

لقد صار الكرم طبيعة تتمشى فى دماها.. فكيف تتخلى عن طبيعتها .. وهى حياتها.

وفى هذا البيت الذى كان الكرم طبيعة فيه غير محدثة .. نشأت « سفانة » بنت حاتم الطائى . فجاءت على ما عودها والداها :

كانت « سفانة » من أجود نساء العرب على الإطلاق ، وكان أبوها يعطيها المجموعة من الإبل .. وعلى الفور تهبها للناس !!

وذات يوم قال لها أبوها :

يابنية !!

إن الكريمين إذا اجتمعا فى المال .. أتلفاه ! فإما أن أعطى .. وتمسكى ..

وإما أن أمسك .. وتعطى . فإنه لا يبقى على هذا شىء .

فقالت له :

منك تعلمت مكارم الأخلاق[2]...

وهكذا تأخذ المرأة موقعها تمارس هوايتها فى مساعدة المحاوريج

فى ساعة العسرة :

لكنها – وفى ساعة العسرة – لا تتخلى عن كرامتها . وإجمالها فى الطلب .. بل وجمالها فى عرض قضيتها :

---

(١) أى : من قديم .

(٢) خواطر فى الأدب : محمد السمان / ح / ح١ / ن٣ .

عندما فتح « سعد بن أبى وقاص » – رضى الله عنه – .. بلاد الفرس : أتته «حرقة » بنت النعمان . ملك الحيرة . ومعها عدد من جواريها . تطلب منه العون.

فقال :

أيتكن حرقه ؟ ! قلن : هذه .. وأشرن إليها – قال لها : أنت حرقه ؟ – قالت : نعم فما تكرارك الاستفهام ؟ : ثم قالت : إن الدنيا دار زوال .

وإنها لا تدوم على حال .

إنا كنا ملوك هنا المصر من قبلك : يجيء إلينا خراجه ويطيعنا أهله زمان دولتنا .

فلما أدبر الأمر وانقضى . صاح بنا صائح الدهر :

فصدع عصانا . وشقت شملنا .

وكذلك الدهر يا سعد !

إنه ليس قوم بسرور وجدة إلا ا لدهر معقبهم حسرة .

ثم أنشدت :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقه نتنصف

فأف لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلب تارات بنا وتصرف

فأكرمها سعد – رضى الله عنه – وأحسن جائزتها .

فلما أرادت فراقه . قالت له :

لا أنصرف عنك حتى أحييك بتحية ملوكنا : لا جعل الله لك إلى لئيم حاجة .

ولا زال للكريم عندك حاجة .

ولا نزع من عبد صالح نعمة .. إلا جعلك سببا لردها عليه .

فلما خرجت من عنده تلقاها نساء البلد فقلن لها :

ما صنع بك الأمير ؟ قالت :

حاط لى ذمتى .

وأكرم وجهى .

إنما يكرم الكريم .. الكريم

أما بعد

فقد كانت « حرقة » محترقة الأعصاب .. تعيش أقسى لحظات حياتها ..

لكنها لحظات مباركة :

تلهب .. لتلهم

وقد ألهمتها تلك الدرر !. التى أهدتها سعدا – رضى الله عنه – . ولئن عادت هى بحفنة من المال . فقد عاد هو بأغلى ما يملك الرجال .

* * *

ثمن الكرامة

آخر الدواء الكى :

حكمة جرت على لسان العرب .. وما تزال :

وتعنى :

أن الأطباء يحاولون علاج الجرح .. حتى يندمل .. ولكنه لا يستجيب للدواء..

وعندئذ يكون الكى بالنار هو خط الدفاع الأخير فى حياة الجريح .. والذى يتحمل آلام الكى راضيا .. فى سبيل الشفاء الذى طال انتظاره .

وكذلك فعلت « سلمى الغفارية » والتى تحملت فوق ما يحمل البشر .. فى سبيل شىء أغلى وأعلى هو : الكرامة :

ومن قصتها :

أن « عروة بن الورد » أغار على قبيلتها « غفار » وكان من صعاليك العرب .. لكنه كان شجاعا .. جوادا ..

وقد وقعت فى أسره « سلمى » ثم تزوجها . واستولدها وذلك على كره منها ..

وما زال الإحساس بالذل يتنامى فى قلبها حتى وجدت فرصة للهرب .. فهربت عائدة إلى قبيلتها .

وفوجئ « عروة » بالفاجعة .. فلحق بها . يطلب منها أن تعود على الأقل لرعاية أولادها .

لكنها قالت له :

إنى أقول فيك – وإن فارقتك – الحق : واللّه ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك !وأغض طرفا . وأقل فحشا . وأجود يدا وأحمى لحقيقة! ولكن :

ما مر على يوم منذ كنت عندك .. إلا والموت فيه أحب إلى من الحياة بين قومك ؟ .

طالما سمعت المرأة من قومك تتحدث عنى فتقول : قالت جارية عروة كذا وكذا! واللّه لا أنظر فى وجه إحداهن بعد اليوم ! من كرهها للعبودية – ارجع راشدا إلى قومك وأحسن إليهم » !! لقد تتحدث الأبناء اليوم عن تلك المرأة الحديدية .. والتى استطاعت أت تخترق كل الأسوار هاربة إلى هناك .. خلف البحار .. فرارا من محاكمتها على ما جنت يداها ..ولكن أين تلك القوة من هذه الزوجة « سلمى» والتى وقعت بين شقى الرحى .. وتعرضت لضغوط من داخلها فلم تستسلم . ولم تلن لها قناة ؟ .

لقد أسكتت فى كيانها صراخ غريزة الجنس .. مع زوج هو فى رأيها خير الأزواج ..

ثم تجاهلت غريزة الأمومة .. حين رفضت أن تعود إلى أبنائها .. وهم فلذات كبدها ..

كيف انتصرت المرأة العربية فى معركتين من أشرس المعارك ؟ .. لقد دفعت عمرها ثمناً للكرامة !!

حين استغنت عن الزوج .. والولد .. لأن حاجتها إلى الكرامة كانت أغلى وأعلى من ذلك كله!

وربما راجع الزوج نفسه .. مصمما على تلافى ما حدث من نساء قومه .

ولكن الأسرة من حوله .. لن تمهد له الطريق إلى العودة الراشدة .

إن فى ذلك لعبرة لكل قريبة للزوج تحرك لسانها بفارغ من القول .. يفرق الشمل الجميع .. بالكلمة الطائشة تهدم بها العش الجميل ..

إن زورق الحياة الزوجية . قد يتهادى على أثباج بحر هادىء الأمواج .. يتهادى فيه الزوجان كئوس السعادة .. وهنا تكون العلاقة « تجارة » .. يعطى أحدهما « السبت» ليجد « الأحد ».

أما عندما يثور الموج .. وتعصف الرياح .. فهنا تظهر المعادن

وقد كان معدن « سلمى» نفيسا..

ففى ساعة العسرة .. واجهت الإعصار بهذا الاصطبار : شهدت لزوجها بما يخلده .. ثم رضيت بالوحدة التى رأتها خيرا من جارات السوء ..

وهى العزة المشتقة من الطبيعة العربية الأبية .. والتى عبر عنها « الثورى » بقوله :

لأن أترك عشرة آلاف درهم يحاسبنى اللّه عليها .. أحب إلى من أن أحتاج إلى الناس :

لأن أمضى وأترك بعض مالى يحاسبنى به رب البرية أحب إلى من وقع احتياجى

إلى نذل صحيح بالعطية.

*****

دور المرأة فى التنمية

يقول الدكتور .. عيسى عبده .. تفسيرا لقوله تعالى فى سورة طه :

﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىَ ..﴾

يقول :

[إن العمل فى سبيل تدبير المعاش .. للرجل . دون المرأة .

إذ تقع على المرأة واجبات أخرى بحكم إعدادها « الفسيولوجى».

وليس معنى ذلك أن مفهوم النص القرآنى يمنع المرأة من العمل فى سبيل القوت .

ولكن معناه :

أن الأصل هو :

أن يسعى الرجل سعيا حثيثا . متصلاً . لتدبير معاشه .ومعاش أسرته .

أو كما يقول الزمخشرى ما معناه :[إن العمل معصوب برأس الرجل].

* * *

المرأة والتنمية الاقتصادية

عن « سهل بن سعد الساعدى » :

أن امرأة جاءت إلى رسول اللّه ﷺ « ببردة » [١] . قالت : يارسول اللّه :

إنى نسجت لك هذه . بيدى . لأكسوكها فأخذها رسول اللّه ﷺ .. محتاجا إليها. فخرج علينا فيها . و إنها لإزاره .فجاء فلان بن فلان [رجل سماه يومئذ] فقال : يارسول الله :

ما أحسن هذه البردة ! أكسنيها .. قال : نعم فلما دخل طواها وأرسل بها إليه . فقال له القوم : واللّه ما أحسنت ! كسيها رسول اللّه ﷺ .. محتاجا إليها .. ثم سألته إياها ؟!! وقد علمت أنه لا يرد سائلا !

فقال :

---

(١) شملة لها أهداب .

إنى والله ما سألته إياها لألبسها . ولكن سألته إياها لتكون كفنى .

فقال سهل :

فكانت كفنه يوم مات] [١] .

تمهيد

يقولون :

هناك عمل .. يحتاج إلى المرأة .. وعمل آخر .. تحتاج المرأة إليه :

ربما كانت للمرأة مواهبها الخاصة بها : فى مجالات الطب النسائى . وفى مجالات كثيرة من مجالات الخدمة الاجتماعية .. حيث ترشحها مواهبها لملء فراغ لا يقدر على سده الرجال .

وتلك هى الأعمال التى تحتاج إلى المرأة .. والتى لا تتم إلا بها .

إلى جانب ما قد يحدث فى حياتها من مفاجآت تفرض عليها العمل .. مثل : غياب العائل . وكثرة العيال .

ونحن أمام نموذج من النساء :

استطاعت وهى تحت سقف البيت أن تحسن عملا .. فأنجزته ....لقد وجدت وقتا فائضا .. وطاقة موفورة .. لا فى الثرثرة ولغو الكلام .. وإنما فى عمل نافع لها .. ولأمتها .

إنه عمل يحتاج إلى الصبر ... والنفس الطويل .. والدقة والحذر .. وللمرأة فى كل ذلك باع طويل ..

وإذا كانت بعملها تعبر عن جمال الحركة .. والنتاج .. فإنها بإهدائها إلى الرسول ﷺ دلت على جمال خلقها حين خصته بها ﷺ .

ولقد قدمتها إلى الرسول فسدت حاجة ضرورية لديه .. دل على ذلك سرعة ارتدائها .. ثم الظهور بها بين الصحاب .. يضاف إلى ذلك أنها وقفت بعملها هذا فى طابور العاملات .. ولم يكلفها العمل : الابتذال .. أو الأحتكاك بالرجال ...

وها هى ذى تقدم فائض نتاجها إلى الرائد الذى لا يكذب أهله ﷺ .. وقد قبلﷺ الهدية :

---

(١) رواه ابن ماجه كتاب اللباس -٣٢- .

أ - تقديرا للمرأة . وإشادة بعملها .

ب - ثم إقرارا للعمل نفسه .

ج - ثم ليكون الموقف برمته تحريضا للنساء ... ليتنافسن فى مثل هذا العمل المبارك .

مفارقه عجيبة :

والمفارقة العجيبة هنا .

أن تعمل المرأة .. ثم يحاول « الرجـل » أن يـأخذ مـا عملت دون أن يبذل فيه جهدا ...

لقد استوى الرجل والمرأة هنا فى أصل حب رسول الله ﷺ . لكن حب المرأة كان إيجابيا .. حين أثمر هذه الشملة .. بينما كان حب الرجل هياما ملك عليه أقطار نفسه .. لكنه لم يرتب عليه عملا !! .. بل أرادها كفنا !

وكان عليه يدل أن يأخذ الشملة .. جاهزة .. وبلا ثمـن .. كـان عليـه أن يرسل ابنته .. أو زوجته .. لتأخذ عن هذه المـرأة مبـادىء « فـن النسـيج » ليزداد طـابور العاملات امتدادا لكنه لم يفعل ويبقى الدرس المفيد هنا وهو : قدرة فـى المـرأة علـى أن تكون فى المجتمع شيئا مذكوار ..

وما أجدر النساء اليوم أن يفهمن ذلك الدرس جيدا : وهو : قدرة المـرأة علـى الإسهام فى حل مشكلات أمتها الاقتصادية حتى وإن كانت « ربة بيت » .

إن الأشياء الصغيرة .. تسفر فىالنهاية عن مشروعات كبيرة ...

إن البحر .. من القطرة .

والجبل من حبة الرمل .

فكذلك الحال فى الاجتماعيات وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

هاربات من الجهاد

كانت التاجرة العفيفة الشريفة .. تقعد أمـام دارهـا محتشـمة تغطـى حاجـة مـن حاجات القرية .

لكنها آثرت أن تترك مقعدها أمام الدار لتنزوى فى زاوية من زواياها .. مهمتها الاستمتاع إلى إذاعة القرآن الكريم . مجددة توبتها نادمة على أيام .. باعدت بينها وبين هذا الذى اهتدت إليه أخيرا .

وخسر السوق المائج بالأيمان الكاذبة .. خسر تاجرة عفيفة شريفة قانعه .. بقدر ما كسب المخادعون من غيابها !

لقد كانت المرأة التى نسجت « الشملة » لرسول ﷺ .. كانت تراه شخصيا .. وتسمع صوته غضا طريا ، ولم يمنعها ذلك من أن تكون عاملة .. آكلة من عمل يدها مخففة بذلك عزتها .

وتاريخنا الإسلامى حافل بشواهد تؤكد قدرة المرأة على أن تكون إيجابية لها دورها ولها تأثيرها فى مجرى الحياة : فلم يكن مكانها الأثير فى « المطبخ » تعد الطعام ..لكنها أحست بمسئولية تؤرقها .. فتاجرت .. بشرف .. وطلبت العلم .. بشغف ..

وكان للصوفى « بشر الحافى » ثلاث أخوات يعشن معه فى بيت واحد ..

ومع أن الزهد كان هو القاسم المشترك الأعظم بين أفراد البيت . لكنهم جميعا كانوا يأكلون مما عملت أيديهم ! جاءت أخته يوما الإمام أحمد .. فقالت يا أبا عبد اللّه:

إنى أغزل ليلا على ضوء السراج . وربما يطفىء السراج فأغزل على ضوء القمر .

فهل على حين أبيع الغزل : أن أبين للمشترى : أن هذا غزل فى ضوء السراج.. وهذا غزل فى ضوء القمر ؟!! [لما يكون بينهما من فارق فى الجودة تبعا لنسبة الضوء]

فأجابها ابن حنبل – رحمه اللّه – :

إن كان عندك بينهما فرق .. فعليك أن تبينى ذلك ! فسألته ثانيا :

هل أنين المريض شكوى ؟!

قال :

إنى أرجو ألا يكون شكوى .

[أى هو مما يستريح به المريض وليس تبرما بالقدر] .

إننا أمام امرأة عاملة .. عابدة .. زاهده .. لكن الزهد لم يحبسها فى الدار .. لكن الزهد يعلن عن نفسه عمليا فى شخص امرأة تؤكد لك أن « حق العنبر » لا قيمة له إذا لم يشم الناس رائحته .

إننا فى حاجة إلى مثل هذه القدوة الحسنة .. فى شخص امرأة زاهدة ورعة .. تمارس التجارة .. لتكون حجة على الفجار من التجار !

إن المرأة هنا سليلة بيت الزهد والورع .. تتاجر وعلى جبينها تاج الشرف والأمانه والإخلاص .. ومن أمانتها أن تسأل عماغزلته فى ضوء القمر وهو فرق – إن كان – لا يضر الصنعة شيئا .. ولكنه الحس المرهف . والإيمان الصاحى .. والورع الصادق يبدو فى صورة امرأة مؤمنة .. يؤذن فى الناس بأن الإيمان كما يصنع الرجال . فإنه يصنع النساء .. حقا : لقد أثبتت المرأة وجودها عبر التاريخ .. وفرضت احترامها على الحياة :

يقول الشيخ محمد الغزالى :

[والحق أن المرأة العربية فى الجاهلية الأولى .. برزت شمائلها الحسان فى ميادين كثيرة :

أيام الحرب . وأيام السلم . على السواء .

ولم توضع أمامها العوائق التى وضعت أمام المسلمات فى عصور الانحطاط العام للأمة الأسلامية .

وفى صدر الإسلام استطاعت أمرأة من الخوارج أن تقود جيشا يهزم الحجاج . ثم يحصره فى قصره .. ويتركه وهو مذعور .. حتى عيره أحد الشعراء على هذا الموقف المخزى بقوله :

أسد على . وفى الحروب نعامة ... فتخاء .. تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى ؟! ... بل كان قلبك فى جناحى طائر

أما فى العهود الإسلامية الأخيرة :

فإن المرأة ما كانت تدرى وراء جدران بيتها شيئا ! وعندما غلبتنا حضارة الغرب المنتصر .. كان هم المرأة أن تقلد فى الثوب الرشيق والمنظر الأنيق .

أما فى غزو الفضاء .. واكتشاف الذرة . ودراسة النفوس والآفاق فإن الأمـر لا يستحق الاكتراث .. لأنه ليس من شأنها ولا من رسالتها ! إن الإسـلام – فـى سباق الفضائل – لا يقيم وزنا لصفات الذكورة والأنوثة . فالكل سواء فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق : الكل سواء فى مجال العلم والعمل . والجد والاجتهاد] [١] .

* * *

النظرة العاجلة

والبصيرة العاقلة

دارت المعركة بين بعض الشباب حول جواز مصافحة المرأة الأجنبية .

وقلت لأطراف المعركة التى اشتدت حرارتها :

ربما يلهينا التعصب للرأى أحيانا عن أمور أكبر مما نتمارى فيه .. والعراك هنا حول حكم شرعى ظاهرة صحية .. ما بقى فى إطار من الحكمة .. واحترام الطرف الآخر.

ولكن .. كان عليكم أن تعودوا إلى الوراء خطوة تتيح لكم رؤية أعمق للقضية كلها :

لقد شهدت « نسيبة بنت كعب» ليلة العقبة.

وكان مما قاله زوجها «زيد بن عاصم » والذى حضر البيعة أيضاً :

يارسول اللّه :

هاتان امرأتان : [نسيبه ..] و .. أسماء بنت يزيد . حضرتا معنا يبايعنك.

فقال ﷺ :

[قد بايعتهما على ما بايعتكم عليه .. إنى لا أصافح النساء]

لقد قرر ﷺ أنه لا يصافح النساء .

ولقد وقف هؤلاء الشباب عند هذه الجزئية ..

وهى على أهميتها لا تحجب ما وراءها من معنى عظيم هو : لقد شهدت «نسيبة... » أُحُداً .. مع زوجها وابنيها : « عبد اللّه » وحبيب ..

---

(١) قضايا المرأه .

يعنى : الأسرة كلها على خط النار ..

وكان دور نسيبة .. أولا : سقاية الجرحى .

فلما انقلبت الموازين .. واشتد وطيس المعركة .. تركت مكانها فى سلاح خدمة الجيش .. لتقف إلى جانبه ﷺ تدافع عنه .

وليس هذا فقط .. فقد قتل .. مسيلمة الكذاب .. ولدها .. فقررت أن تثأرلولدها الشهيد .. فحملت السلاح فى «اليمامة» وأبلت بلاء حسنا..

وقد بترت ذراعها .. لكنها لم تتوقف عن مواصلة القتال .

أما أسماء بنت يزيد :

فقد كان لها دورها فى معركة «اليرموك» :

لقد قتلت من الروم تسعة رجال ..

وقتلتهم بعمود خيمتها !!

أريد أن أقول لهؤلاء الشباب :

فلتأخذ قضية المصافحة - وأمثالها - لحظتها العابرة من وقتنا ..

ليكون الوقت الأطول مرصودا للكشف عن هذه القدوة الحسنة .. حتى تأخذ فتيات اليوم طريقهن وراء أم عمارة .. وأسماء ..

لتتعلق هممنا بما نحن أحوج إليه فى مواجهة أخطار تحتاج إلى جهدنا .. بدل أن نبعثره لحساب أعدائنا .

******

آخر المطاف

عرض وتحليل الكتاب : بقلم : فتحى الإبيارى

*** إن المرأة المسلمة لها تاريخ طويل فى الجهاد ، والكفاح ، وحمل الرسالة، والتاريخ قد سجل لنا كثيرا من تلك المواقف العظيمة التى وقفتها المرأة المسلمة منذ بداية الرسالة ، مثل السيدة خديجة - رضى اللّه عنها - ، وأسماء بنت أبى بكر ، وعائشة أم المؤمنين ، والسيدة زينب . وغيرهن من فضليات أمهات المؤمنين اللائى جاهدن فى سبيل اللّه ، وإعلاء كلمة الحق . وقد أصدر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية كتابا بعنوان « صفحات من تاريخ المرأة المسلمة » للأستاذ محمود محمد عمارة . تناول فيه بعض الصفحات . عن فتاة تعلمنا فن الحياة ، وعن « المرأة بين السلبية والإيجابية » ، ودروس من بيت النبوة ، ويروى الكاتب قصة هذه الفتاة كما جاءت فى صفحات التاريخ .

هذه الفتاة :

« قال أسلم : بينا أنا مع عمر بن الخطاب وهو يعس - يتجسس أحوال رعيته - بالمدينة .. وقف يستريح لحظة ، فاتكأ على جانب جدار فى جوف الليل .

وإذا امرأة تقول لابنتها : قومى إلى ذلك اللبن فامذقيه - اخلطيه - بالماء .

قالت الفتاة لأمها : أو ما علمت بما كان من عزم أمير المؤمنين ؟

قالت الام : وماذا كان من عزمه يا بنيَّة ؟

قالت : إنه أمر مناديه فنادى . « لا يشاب - لا يخلط - اللبن بالماء » .

قالت الأم لابنتها ساخرة : .

يا ابنتى قومى إلى اللبن فامذقيه بالماء فإنك فى موضع لا يراك عمر ولا منادى عمر !

قالت لأمها غاضبة :

- يا أماه .. ما كنت لأطيعه فى الملأ . وأعصيه فى الخلاء ! . وهل يغيب عنا رب عمر .. إذا غاب عمر ؟!

وقد سمع عمر هذا الحوار ، فقال لأسلم :

- علم الباب ، واعرف الموضع . ثم مضى فى عسه ، فلما أصبح قال :

– يا أسلم .. أمض إلى الموضع فانظر .. من القائلة ؟، ومن المقول لها وهل لها من بعل ؟ .

فأتيت الموضع فإذا الجارية لا بعل لها . وكذلك أمها . فأخبرت عمر فجمع أولاده .. وقال لهم :

هل فيكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه ؟ لو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبقه منكم أحد إلى هذه الجارية .

وكان للجميع أزواج عدا « عاصم بن عمر » .. فتزوجها . ثم ولدت له بنتا وولدت هذه البنت عمر بن عبد العزيز » .

وعندئذ يحلل الكاتب هذه القصة ، فيقول : إن هذه الفتاة لتضرب الأمثال لسدنة النفاق الاجتماعى .. هؤلاء الدين يؤيدونك علانية .. ثم يخاصمونك سرا ويؤمنون بالرأى فى وجه النهار ليكفروا به آخره ! ..

وأين من هذه الفتاة بنات اليوم . !

يأمر الأب أو الأم ابنتهما .. وعلى اللسان يجيء الجواب بالتسليم . وفى نفس الوقت تخفى إصرارها على المخالفة . لقد كانت هذه الفتاة صافية القلب تعيش بالدين. لا للدين . وكان أسلوب عمر بن الخطاب فى تزويجه هذه الفتاة لابنه عاصم.. نموذجا فريدا . فقد استهواه منها صحوة ضميرها ، وعمق إيمانها .. ولعل فضل الخطاب يسعفه إذ يهديه الله إلى دليل حى من جوامع الكلم على لسان الرسول ﷺ يجعل من فكرته رأيا مؤيدا بالدليل .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من تزوج امرأة لعزها .. لم يزده اللّه إلا ذلا .

ومن تزوجها لحسبها لم يزده اللّه إلا فقرا .

ومن تزوجها لحسبها لم يزده اللّه إلا دناءة .

ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره . ويحصن فرجه أو يصل رحمه .. بارك الله له فيها وبارك لها فيه » .

فلا ضير أن تكون بائعة اللبن زوجا فى بيت أمير المؤمنين .

لا ضير أبدا .. مادامت عزيزة برأيها .. كريمة بخلقها ، غنية بقناعتها .. جميلة فى سمتها وسط إغراء الحياة الدنيا .. وكما قال الشاعر :

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه

فما فاته فيها فليس بضائر

وهذا مثل .. للآباء .. والأمهات .. فى أن الأخلاق هى أهم ما ينبغى أن يحرص عليه كل أب .. وكل أم .. عند الزواج .. وليس بالمال تقاس الأمور . وهذه بعض الخواطر لشاب .. يناجى فتاة أحلامه .. يقول :

لا أملك النجوم يا حبيبتى .. ولا القمر

ولا بساط الريح يخطف البصر

لا .. ولا خزائنى بها الذى ندر وبيتنا الصغير لا يطاول الشجر

لكنه مزين بأجمل الصور

والحب فيه يملأ الجحر

كما وليس لى وسامة الفتى الأغر لكننى كسائر البشر

فساعدى يفتت الحجر

ويضرب الثرى فينبت الخضر !!

ثم يحاول الكاتب أن يضرب لنا الكثير من الأمثلة والدروس من بيت النبوة ، فى القلوب سهل ممتع ، وتحليل دقيق ، وشرح مختصر وافٍ للآية الكريمة ﴿ **يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً . وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً**﴾ [الأحزاب : ٢٨،٢٩] صدق الله العظيم .

وقد روى الكاتب قصة هذه الآية الكريمة .. وما حولها من أحداث ، نستخلص منها .. مواقف رائعة للمرأة المسلمة نحن فى أشد الحاجة إلى العودة إليها . نستلهم منها المثل ، والقدوة .. فى حياتنا المعاصرة . لكى نبنى الجيل الجديد .. الذى يتولى قيادة مصر العظيمة فى عام ٢٠٠٠ نحو الحضارة الحديثة المدعمة بالعلم والإيمان .

* * * * *

الفهرس

****